(١)

كيف عرف

صرخ هامبتي داميتي، منفجراً في صراخ عاطفي: «إنني الآن أعلن أن ذلك في منتهى السوء، لقد كنت تنصت على الأبواب ـ ومن وراء الأشجار ـ ومن خلال المداخن ـ ولم يكن باستطاعتك أن تعرفها!!».

فقال أليس بكل لطف «في الحقيقة إنني لم أفعل ذلك، إنها في كتاب» فقال هامبتي دابتي بلهجة أكثر هدوءاً «آه لا بأس لعلهم كتبوا مثل هذه الأشياء في كتاب»

لويس كارول ـ عبر المنظار.

إن هناك ما يزيد على ستة آلاف محفل ماسوني تحت السلطة القضائية للمحفل الإنجليزي الأعظم، كما يتم تكريس ما معدله حوالي مائة محفل جديد كل عام. ولما كان الماسونيون في معظمهم ينتمون إلى الطبقات الاقتصادية الوسطى والعليا (فيما إذا كانت هذه التعابير لا يزال لها معنى) فإن من الأمور التي ينبغي إدراك قيمتها وأهميتها فوراً ألا وهو أنهم يمثلون تأثيراً ونفوذاً في غاية القوة والتنظيم.

إن مجال هذه الفصول ليس تحليل ذلك التأثير على الحياة السياسية والاجتماعية للشعب، كما أن مجال هذه الفصول ونطاقها لا يتسع لمناقشة التأثير على أخوية فرسان الهيكل والروزيكروشيين أما محاولة التأريخ للماسونية في

تطورها من الجمعيات المهنية الكاثوليكية، أو محافل بنائي الحجارة العاملين في العصور الوسطى عبر القرنين السابع عشر والثامن عشر للتأمليين ذوي النزعة الدينية الطبيعية، إلى الديانة الكونية غير المسيحية التي تشمل كافة الديانات والتي تدين بها الأخوية الماسونية في يومنا هذا، ولما كانت الماسونية تتداخل مع الكنائس غير الكاثوليكية، وخاصة مع كنيسة إنجلترا، فإن اهتمامي أقرب إلى فحص المدى الذي يمكن فيه تبرير هذا التداخل والتشابك أخلاقياً ولاهوتياً. وبعبارة أخرى، هو تقصي فيما إذا كانت الماسونية منسجمة مع العقيدة المسيحية.

إن أي شخص يقوم بمثل هذه التحريات والتقصيات يواجه منذ البداية بمعضلة ظاهرة ألا وهي أن المعلومات الموثوقة لا يمكن الحصول عليها بسبب رفض أولئك الذين هم في داخل الأخوية الماسونية إفشاء الأسرار كما أن أولئك الذين هم في الخارج لا يمكنه معرفة أي شيء عن هذه الأخوية الماسونية، وهذه هي القصة التي نشرتها الماسونية بصورة ناجحة بحيث إنها ليست مقبولة بصورة عامة من قبل أولئك الذين هم في الخارج، بل وبكل إخلاص من قبل معظم الماسونيين كذلك.

إذن، يوجد هناك سر فقط تم الاحتفاظ به بصورة مقبولة، وخاصة عند الماسونيين، وهذا السر هو الحقيقة القائلة بأنه لا يوجد هناك مثل ذلك الشيء كسر ماسوني محدد.

وعلى هذا فإن ما تم إمراره على أنه سر ليس في الحقيقة سوى خداع وافتراض بأن غير الماسوني ليس مهتماً بصورة كافية للقيام بالتحقيقات والتحريات. ولذلك فإنهم راضون كل الرضى عن هذه النقطة الأخيرة بحيث إنهم لم يقوموا بفرض أي فحص أو تدقيق فعال على المبيعات العامة للطقوس والشعائر المطبوعة (كما أن الناشرين الماسونيين مثل غيرهم من الناشرين، يقومون بعملهم على أساس جني الربح) ولكن إذا أردت أن أصبح سكرتيراً أعظم فإنني سأكون مدفوعاً للقيام بتحريك السماوات والأرضين من أجل إدخال

تشريع يؤكد أن باستطاعة الماسونيين الحصول على الشعائر والطقوس المطبوعة فقط بواسطة سكرتيري محافلهم أو من الرئيس الأعلى.

وبعد ذلك أشجب تلك المنتجات التي يواصل الخارجيون إنتاجها على أنها أعمال قرصنة وأنها غير رسمية إطلاقاً وغير معترف بها. من المحتمل الآن أن يكون قد فات الأوان، بل وحتى حيث يمكن لمثل هذه الخطوة أن تكون فعالة، فإنها سوف لا تعالج مشكلة التأثيرات الماسونية لأخ متوف اتخذت مخلفاته من الكتب والمستندات طريقها إلى سوق الأشياء القديمة والمستعملة عن طريق أرملته التي لا تتعاطف معه.

وقد أوصلني ذلك إلى المصدر الثاني للمعلومات وهو ذلك الفيض من التعليقات والشروحات الماسونية، والمنشورات الدورية، والكتيبات الدليلية، بل وحتى التواريخ التي تتخللها بعض الدلائل بصورة غير مقصودة مثل ذلك الكتاب الممتاز، الموثوق والمتميز بحسن إدراكه واستيعابه مثل كتاب بيرنارد أي. جونز «دليل الماسونية وخلاصتها الوافية» الذي يذكر بأن تيوبال كين (المطبوعة بكاملها) قد ظهرت في بعض الدرجات. وهكذا فإنه فعل ذلك بالرموز. ففي كثير من الطقوس ظهرت كلمة السر للدرجة الثالثة قد أعطيت فعلاً على أنها تي. سي. وكذلك حرف إيه وإم كرمزين لكلمتي صانع الحديد، كما ورد ذلك في سفر التكوين.

لقد تركت كمصدر ثالث وأخير أوضح المصادر الخاصة بالمعلومات، وهي الإفشاءات التي تم نشرها والتي كشفت عن كثير من الأسرار. وهي في غاية الأهمية في دقتها والوثوق بها والاعتماد عليها، كما أنه في الحقيقة والواقع فإن عدم وجود مصدر حديث أو موثوق، هو السبب الذي دعاني إلى نشر هذا الكتاب، وستكون مهمة طويلة ومعظمها لا علاقة لها بالموضوع القيام بمناقشة وتقييم هذه الإفشاءات بصورة تفصيلية وتلك النشرات التي كشفت عن تلك الأسرار، والتي تمتد من بريتشارد ومورغان إلى النشرة الصغيرة السيئة والطباعة البذيئة اللهجة. ويحتاج المرء إلى أن يعرف شيئاً ما عن خلفيتهم التاريخية،

ووضع المؤلفين، وإذا كانوا ماسونيين، دوافعهم إلى إصدار تلك الإفشاءات بصورة منظمة وصحيحة لتقدير قيمتها ومعرفة دقتها. كما ينبغي على المرء أن يقارنها مع بعضها لأن بعضها قد تم تأليفه وجمعه فقط من الإفشاءات السابقة بدون الإشارة إلى المؤلفات الحديثة كما أنه لم يضف إليها أية معلومات جديدة.

وكان الإفشاء والفضح الذي ظهر في الولايات المتحدة هو ذلك الإفشاء الذي أصدره ويليام مورجان السيء الحظ، الذي قاد اختفاؤه في عام ١٩٢٦ إلى تلك الصرخة المدوية العامة بأن الماسونية تعاني هزائم ونكسات حادة في أمريكا والتي امتدت على مدى سنوات عديدة. وكان من بين مطبوعات ونشرات تلك الحقبة كتيب نشره ذلك المبشر الشهير ورجل التربية والتعليم والماسوني السابق تشارلز. جي فيني، الذي يحمل عنوان «خصائص ومطالب الماسونية» وقد أوضح في هذا الكتاب ما جاء في كتاب مورجان قائلاً «إلى الحد الذي يمكن أن أتذكره فقد كان كشفاً حرفياً عن الدرجات الثلاث الأولى كما سبق لي وأخذتها أنا نفسي».

وقد ذكرت فيني بصورة خاصة لأنه بالرغم من أنه ينتمي إلى جيل أسبق فقد كان صديقاً عظيماً وأخاً في طائفة جدي من جهة أمي في أبردين، أو هايو، كما أن استقامته التامة وورعه وأمانة خلقه وصدقه جعلت منه حكيم عائلتنا ومستشارها. وكان هذا هو العامل الذي لا يقدر بثمن الذي كان له وزنه الطبيعي في تقديري وتقييمي للتأكيدات التي جاء بها.

بصراحة وبمنتهى الدقة فإنه في الوقت الحاضر لا يوجد مثل هذا الشيء. فحتى الآونة الأخيرة لم يكن هناك أية طقوس أو شعائر مطبوعة على الإطلاق، وكانت النصوص تحفظ عن ظهر قلب وتنقل مشافهة إلا أنه وكما كان متوقعاً فإن تشكيلات منها بدأت تدخل، وعندما بدأ التسامح بشأن الكتيبات من أجل تثبيت الطقوس وتخفيف عبئها من الذاكرة، ظهرت عدة مؤلفات ممتازة ـ مثل كتاب المحاكاة والاستقرار (يعتبر عموماً نموذجاً) طبعة أكسفورد، بريستل، ومؤلفات كبيرة محلية كثيرة أخرى. وطالما أن المعالم الرئيسية القديمة، والإشارات،

وأشكال المصافحة، والكلمات والبنية العامة للطقوس قد تمت المحافظة عليها وبقيت ثابتة، فإن التشكيلات والأنواع الأخرى الشفهية الاحتفالية التافهة يسمح بها. ومع هذا فإن المحفل الأعظم بقي مصراً على رفض النطق بأي كلمة تقر بها على أنها «رسمية». ولما كانت الطقوس والشعائر المطبوعة غير مسموح بها ولا مباحة داخل المحفل على الإطلاق، فإنه قد تم التسامح بشأنها فقط كدلائل تشير إلى مختلف الاستعمالات في مختلف المحافل، وكوسائل تساعد على الحفظ والاختزان في الذاكرة، ذلك هو وضعها الفعلي فقط.

ومع هذا، فيمكن الافتراض بصورة سليمة أن الناشرين الماسونيين الموثوقين لا ينفقون أموالاً على طباعة طقوس مزيفة بصورة مقصودة بقصد إبقاء الجماهير بعيدة عن شم الرائحة وأن أولئك السادة المحترمين الذين يخزنون تلك القطوس في ذاكرتهم وهم في القطارات والمطاعم إنما يضيعون أوقاتهم بصورة متعمدة، ولذلك فإن هذه الكتيبات، تم عملها وتفسيرها بصورة صحيحة كما أنها أعطت دليلاً معتمداً لمؤلفات المحفل.

إذن يوجد هنا مصدر آخر للمعلومات.

ولكنها بالطبع ليست بتلك الصورة من السهولة، حيث إن هذه الكتيبات كانت قد كتبت بصورة من المفروض أن تكون «واضحة جلية فقط للأخوية الماسونية» كما تحتوي على الفجوات (وهي الإشارات المعطاة الخ). كذلك فإن كثيراً من الكلمات السارية المفعول (وبعض الكلمات التي بطل أثرها) التي تم الإبقاء عليها لتشديد الغموض والخفاء قد أشير إليها إما بالأحرف الأولى، أو الفراغات التامة. ولكن هذه العملية كان عملها في منتهى الخرق وعدم البراعة. مرة ثانية على افتراض أنه لا يوجد هناك أي خارجي سيزعج نفسه ويكلفها عناء دراسة هذه الطقوس بنفس المثابرة والذكاء والاجتهاد الذي قد يخصصه في حل الكلمات المتقاطعة التي تنشر في الصحف أحياناً. وقد تختلف طبعات مختلفة من كتب، ولنقل على سبيل المثال «كتاب المحاكاة، والاستقراء» قد تختلف هذه الطبعات في الكلمات التي رمز إليها بأحرفها الأولى وتلك الكلمات التي

طبعت بصورة كاملة، بحيث إنه بمقارنة عدة كتب فإن كثيراً من الفجوات يمكن ملؤها بمجرد النظر. بل وحتى حيث لا يمكن تطبيق ذلك، فإنني أعترف ـ حيث لدي فكرة عامة عن أن القصص الماسونية، هي من بعض النواحي مرتبطة بهيكل الملك سليمان ـ بأن مثل هذه القطع المقتبسة مثل القطعة التالية «التي تصف (كلمة) الدرجة الأولى، يمكن فوراً فك رمزها مع شيء من الاحتمالية بدون الرجوع إلى سفر الملوك والأجزاء الأخرى ذات العلاقة في التوارة ـ فهذه الكلمة مشتقة من الهيكل وممراته ودرجاته كما سيتم شرح ذلك فيما بعد. كذلك فإن كتيبات التعاليم الماسونية فيما يتعلق بمعاني الطقوس فإنها مرتبطة بصورة واضحة جلية بالهيكل بل وحتى بالكلمات التي تتحدث عن عمود الهيكل، من الواضح إذاً أنه لا يوجد هناك سر كبير.

إن أكثر الإفشاءات والكشوف الموثوقة والتي يعول عليها فيما يتعلق بدرجات الأخوية الماسونية التي جاءت في مؤلف ريتشارد كارلايل «كتيب عن الماسونية» الذي صدرت منه خلال القرن الماضي عدة طبعات ولا يزال مطلوباً ويمكن الحصول عليه، مع ذلك لم تتم مراجعته أو تنقيحه إطلاقاً، كما أن هناك العديد من الاختلافات الطفيفة بين كتيب كارلايل وكتاب «المحاكاة الصارمة» بما في ذلك واحد من هذه الاختلافات الواردة في «الأسئلة الاختبارية» والتي اعتقد أنه تم استخدامها كشرك عمد لاصطياد الكذاب، ففي ما يدعى الدرجات العليا فقد ضل سواء السبيل بصورة أكثر جدية ـ «فالغايات المقدسة» على سبيل المثال، ظهرت على شكل ترجمات صوتية سخيفة لا معنى لها بكلمة «التوجيهات». كذلك فإن ترجمته للإشارات الواردة «القنطرة» القنطرة الملكية، مختلفة تماماً عن الطريقة التي أعطيت بها في هذه الأيام. مع هذا فإنه، في درجات الأخوية الماسونية الثلاث، بالرغم من وجود ميل خفيف نحو الإسهاب اللفظي بصورة أكثر مما وجد في المؤلفات الحديثة، فإن كارلايل بلا شك بالغ الدقة إلى حد بعيد، ومرة ثانية يوجد لدي تأكيدان شخصيان يؤكدان ذلك وهما مختلفان تماماً عن مسألة الاتفاق العام بين هذا الكتاب والطقوس والشعائر

الحديثة الموثوقة. فقد ولي أحد أصدقائي من رجال الدين الذي كان يستمع بماسونيته نوعاً ما، ولكنه كان يرفض أن يحملها محمل الجد، أقر لي بصورة صريحة في عنفوان مجادلة جرت معه بأن المسألة السرية ما هي إلا خدعة كبرى وذكر كارلايل على سبيل المثال، قائلاً بأنه إلى سوى ما وصل إليه علمه فقد كان كارلايل دقيقاً بصورة منطقية ومعقولة، كما أن الإشارات، وأشكال المصافحة والكلمات كانت بكل تأكيد في منتهى الصحة والدقة يوجد لدي نسخ تضم في ثناياها عدة أوراق من الأوراق الماسونية الحقيقية الأصلية التي لا شك فيها ولا ريب ـ ويبدو أحد هذه البطاقات الصغيرة التي تبدو هرياً قائمة لتواريخ لعبة الكريكيت، وقد طبعت في داخلها الأسئلة الاختبارية بصورة خفية وغامضة لا يفهمها إلا القلة، بالإضافة إلى الاستدعاءات للمثول أمام المحفل، وإيصال بالرسوم المدفوعة. كما يوجد فيها أيضاً ملاحظات معينة بالقلم الرصاص وبعض التصحيحات التي يبدو أنها كانت تشير إلى أنها كانت قد استخدمت قبلاً من قبل أحد مسؤولي المحفل لتعلم طقوسه وشعائره.

وبمقارنة هذه الإفشاءات والانكشافات مع الطقوس والشعائر الحديثة للناشرين الماسونيين، وبمقابلة الواحدة منها بالأخرى، يمكن للمرء أن يجد الأجوبة لكافة الأماكن الواردة والحروف الاستهلالية بدرجة عالية من الدقة واليقين. حيث يوجد هناك قاسم مشترك بين المعقولية والتسلل المنطقي، فعندما يغطي كل إفشاء أو كشف على سبيل المثال رواية متطابقة لشكل من أشكال مصافحة درجة من درجات الماسونية، وعندما ذكر مؤلف حديث طقساً يقول بأن ألـ «أي» (الحرف الأول من المصافحة باللغة الإنجليزية) أو ألـ تي أو إن الخ قد قام بإعطائها «إيه. دي. بي. أو. تي. تي. أو. تي. تي. جي. أو. تي. إتش، وعندما تكون قد أعطيت هذه المصافحات بصورة منتظمة ثم تسلمها من الطرف الآخر، فإنها تصلح لتميز (الرفيق) «إيه» من قبل الأخ وكذلك من قبل الأخ «دي»، ولا يمكن للمرء إلا أن يفترض بأن هذه المصافحة أو الإشارة قد تم إعطاؤها بواسطة ضغطة مميزة بالإبهام على المفصل الأول لليد، والبديل

الوحيد لافتراض هذه الحقيقة الواضحة الجلية لهذه الاكتشافات هو افتراض وجود خدعة هائلة على نطاق عالمي يشترك فيها كافة الماسونيين، الذي يتفوقون في الذكاء والبراعة والثبات والدهاء وحوك المؤامرات التي عرفها الجنس البشري حتى الآن. ولكن مما لا شك فيه أن معظم الماسونيين أبسط بكثير من أن يصلوا إلى هذا المستوى، وإنها محض مصادفة وتزامن بأن ما «يعتقد» أو يفترض أنها وسائل تعارف في الغالب.

وقد تناولت هذه المسألة الخاصة بالسرية الخيالية التصورية للأعمال الماسونية بصورة مطولة ربما تصل إلى درجة الإملال، من أجل تمكين القارىء من التقدير الصحيح والتقييم الدقيق لرد الفعل الماسوني العادي والغريزي لهذه الإفشاءات والكشف عن هذه الأسرار، إن «الكتب التي تزعم بأنها تعطي أسرار الماسونية» «ماذا اعتقد فلان وفلان في نفسه إنه قد اكتشف» كل ذلك يكادأن يكون عبارات عادية مبتذلة وعبارات لا تشفي غليلاً، حيث إن إدخال الشك أو عدم الدقة الفجة الواضحة بصورة صارخة موجودة هناك دائماً. ولكن دعنا أن لا نصدر أحكاماً قاسية على تلك الوسائل التي تبدو قريبة من عدم الأمانة والصدق المتعلقة بعدم تصديق هذه الخدعة، لأن الماسونيين كانوا قد أقسموا جهد يمينهم على الإنجيل أن لا يفشوا تلك الأسرار إطلاقاً.

فإذا ما قام ماسوني من أصدقائك بإعطاء رأيه في هذا الكتاب، فإنك إما أن تتلقى منه جواباً بعبارات غير مؤدبة، أو يخرج بالصمت عن لا ونعم، ولكن ما يتحدث به الماسونيين عن هذا الكتاب بين بعضهم، فهو مسألة مختلفة تماماً، وفي الحقيقة إنه التهامس بإشاعتين في دوائر ماسونية معينة، الإشاعة الأولى تقول بإنني أنا نفسي كنت ماسونياً وتم طردي بسبب سوء سلوكي وانحطاط أخلاقي، والثانية تقول إنني قدمت طلباً للعضوية، ولكن رفض الطلب بعد التصويت عليه، إلا أنه لا يوجد هناك ذرة من الحقيقة في كلا الإشاعتين، حيث إنني لم أفكر يوماً في أن أصبح ماسونياً.

ولكن في النهاية، إن باستطاعتي الكشف عن إنه قد تم القيام بفحص

وتدقيق ومقابلة لكشفي عن الشعائر والطقوس وفضح أسرارها. إذًا إنه يوجد لدي صديقان يعيشان في جزأين بعيدين مختلفين من البلاد، وقد أبقيت كلاً منهما بصورة متعمدة في جهل عن وجود الآخر، وكلاهما، بصورة لا شك فيها ولا ريب، ماسونيين، كما أن كلاً منهما قد أقنعني بصحة وأصالة شهاداته. وهذان الصديقان كانا من رجال الدين الذين توصلوا إلى النتيجة القائلة بأن «القسم المبني على ادعاءات زائفة باطل ولاغ»، وقد تطوع كل منهما بدافع الضمير ودون توقع للحصول على كسب مادي بأن يقوم بمراجعة وتصحيح مخطوط الكتاب بالإضافة إلى التضحيات مع فسح المجال أمام الاختلافات في الأشياء غير الجوهرية بين محفل وآخر، في كل حالة متفق عليها[1].

والآن بقيت مسألة واحدة. وهي الحجة البالية ذات النزعة الماسونية التي تقول بأن الشخص الذي يكون قادراً على الحنث بالقسم الماسوني يكون قادراً على أن يقول غير الحقيقة التي قد يكون لها وزنها عند الأقلية، ولكنني أترك الرد على هذه الحجة للقارىء ليحكم فيما إذا كان باستطاعة شخصين مجهولين وغير معروفين لدى بعضهما البعض، أن يجعلا مني ضحية خداع وغش متعمد، وذلك عن طريق تلفيق أكاذيب متطابقة على أشياء تافهة متطابقة، عندما يكونان كلاهما متحمسين لإظهار الحقيقة.

---

(١) إن الحركة الماسونية ذات علاقة سرية بالصهيونية وتحاول التعمية الكاملة عن حقائقها، وتعتبر بطقوسها وصلواتها ومصطلحاتها ذات أصول توراتية لإعادة الهيكل الذي يمثل كل محفل رمزاً لهذا الهيكل الذي بناه النبي سليمان عليه السلام، وهي أسلوب سري لخدمة اليهود وتصطدم مع كل الديانات السماوية وخاصة (المسيحية والإسلام) (الناشر).

(٢)

لمـاذا كُتب

لقد قلت:

يا كريستوفر روبين، يجب أن تسقط المنطاد ببندقيتك، فهل أتيت ببندقيتك؟»

«بالطبع لقد أحضرتها، فقلت: «إذا فعلت ذلك فإنك ستتلف المنطاد».

فقال بوه «ولكنك إذا لم تفعل، فإنني سأتركه يذهب حيث شاء، وذلك سيتلفني أنا».

عندما وضع القضية بهذه الصورة، فقد رأيت كيف كان الوضع، ولذلك فقد صوبت بكل دقة على المنطاد، وأطلقت النار.

فقال بوه «أوه».

عندها سألت: «هل أخطأت»؟

فقال بوه: «إنك لم تخطىء بالضبط، ولكنك أخطأت المنطاد. فقلت «إنني آسف» وأطلقت النار ثانية، وفي هذه المرة أصبت المنطاد، وخرج منه الهواء ببطء وعندما هبط ويني ذي بوه عائماً إلى الأرض.

إيه. إيه. ويني. ذي. بوه.

لم يكن الدافع الذي حفزني إلى إنتاج هذا الكتاب إثارة أو إسخاط أصدقائي الماسونيين العديدين، ولا هو مجرد استسلام للإغراء الذي يدعو إلى كشف خدعة كبيرة هائلة وهتك أسرارها. بل إنه كان هناك أعداد متزايدة من رجال الدين وعامة الناس الورعين الأتقياء في كنيسة إنجلترا لديهم شكوكهم

الخاصة بالماسونية التي لم يكن للأجوبة المراوغة الغامضة بالضرورة التي يصدرها الماسونيون أن تزيل هذه الشكوك وتبعد هذه الأوهام. إنهم على تمام المعرفة بأن كثيراً من ذوي المراكز العالية والشهرة سواء في داخل الكنيسة أو في الدولة هم أعضاء في الماسونية لذلك فإن أية حجة ضدهم سوف لا تكون من الناحية المنطقية أقوى من الحجة المقابلة التي سيردون بها، وخاصة عندما نتذكر بأن هذه الشخصيات المتميزة لا توجد لديها معرفة سابقة عن التعاليم التي أقسموا على التمسك بها والولاء لها وعدم إفشاء أسرارها.

إن هناك رجال دين تابعين أيضاً للأبرشية، ممن هم على يقين من أنه بالرغم من أن معظم التابعين لأبرشيتهم من الناس العاديين بل ومن المحتمل أيضاً من وكلاء الكنيسة وقيميها وأعضاء كنيسة الأبرشية نفسها، هم أيضاً أعضاء في المحافل الماسونية فإن هناك أعداداً كبيرة أخرى من الذين يبدو أنهم وجدوا في الماسونية بديلاً تماماً وكافياً عن الدين. وعلى هذا فإن أولئك الذين يعتقدون بالكنيسة والكنيسة وحدها لها سلطة يسوع على الأرض لتعليم الحقيقة الدينية.

وتجديد القوانين والتعاليم الأخلاقية بصورة علنية دون خشية أو خوف، ربما يشعرون بصورة مشروعة بشيء من القلق والانزعاج إزاء فكرة وجود هيئة أخرى بشرية صرفة تقوم بذلك العمل تحت قبة مبنى ضخم هو المحفل الماسوني. ومرة ثانية فإن التأكيدات المتكررة بأن الماسونية لا يمكن أن تتناقض مع الاعتقادات الدينية لأي شخص ليست دائماً كافية لتخفيف تلك الشكوك وإزالة تلك الالتباسات فلو أن رجال الكنيسة يتلقون التعاليم الأخلاقية ومبادىء وقواعد السلوك (مهما كانت ضارة أو مفيدة) من مصدر خارجي، فإن الكنيسة بلا ريب، لها الحق، إذا لم يكن من واجبها، أن تحقق في الأمر وتتقصى أبعاده.

الرغم من أن قليلاً جداً من المعلومات متوفر وجاهز، إلا أن عرضاً مباشراً وصريحاً للطقوس نفسها التي تجري في الدرجات الماسونية الثلاث بالإضافة إلى القنطرة الملكية (النظام الماسوني برمته كما هومعترف به رسمياً من قبل

المحفل الأعظم) سيمكن الناس ممن لديهم تلك الشكوك، وأيضاً لا يوجد لديهم متسع من الوقت للبحث والتقصي المطول. أن يصدروا حكماً بأنفسهم ولأنفسهم.

ويعتقد أحياناً أن هناك سراً ما داخلياً يتم نقله شفهياً إلى المرشح للدخول في العضوية، ولكنه من الغموض والسرية بحيث لا يمكن التنويه عنه في الشعائر والطقوس المطبوعة. ومع ذلك فإن بإمكاني طمأنة القارىء، من المعلومات الماسونية الشخصية الوفيرة وكذلك من الأبحاث والتمحيصات في الإفشاءات والكشوف السابقة بأن الأمر ليس كذلك إطلاقاً. ففي شرب نخب العضو الجديد في المجلس الاحتفالي في وقت لاحق من الضروري أن يلقى الأستاذ المبجل كلمات قليلة حول معنى وامتيازات الماسونية، ولكن هذا الأمر لا يسير بموجب طريقة أو شكل رسمي. كما أن طبيعة مثل هذه التعاليم من النادر أن ترتفع فوق التفاهة والابتذال، وتعتمد كلية على وجهة نظر الأستاذ. ففي محفل من طراز المدرسة القديمة المكسو بالقماش المبرقش قليلاً قد يبلغ العضو المنتسب حديثاً بأن الماسونية هي وصيفة الكنيسة وخادمتها، بينما في محفل رجال الأعمال فإن الأستاذ قد يعلن بأنه بالرغم من عدم استطاعته الإجابة على كل سؤال، إلا أنه يعتقد بأن الماسونية هي أنقى وأطهر ديانة في العالم.

وفقط شرب النخب المخلص الصادق للملكة والأخوية وشرب نخب الرئيس الأعلى (إلى كافة الماسونيين البؤساء والمحرومين) هذه الأنواع من الأنخاب فقط التي تتبع شكلاً وأسلوباً معيناً ومقرراً أن التعاليم الماسونية موجودة بصورة تامة وشاملة في الأعمال والمؤلفات الموجودة في المحفل والمحاضرات والرموز والشعارات وعلى هذا فقد يكون بالإمكان أن تدرس بكليتها وبشمولها في هذه الصفحات. حيث لم يحذف أي شيء ذي قيمة، و«السر الداخلي» الوحيد هو الأسلوب الماسوني في الحياة المبني على الأخلاقية الرمزية، كما أن هذا التعبير للتطبيق على الحياة المقدسة للكنيسة.

إذن سيرى أنه لا أساس له من الصحة إطلاقاً ذلك القول الماسوني

البيغائي الذي يقول بأنه ليس باستطاعة من هو غير ماسوني أن يكوّن رأياً عن التعاليم الماسونية والوصول إلى أي فهم لما تعنيه كافة تلك التعاليم، وبعد كل شيء، فإنه ليس من الضروري إطلاقاً أن تصبح عضواً في كنيسة الروم الكاثوليك من أجل أن تفهم كافة تعاليمها. وذلك مرة ثانية جزء من الخدعة الكبرى التي على أساسها يرفض الماسونيون نفسهم أن يخدعوا. لأنه، بعد كل شيء، لا يحب أي إنسان أن يقر بأن قسماً على السرية يقسم به على الإنجيل ما هو إلا محاولة لوقاية وحفظ أشياء ليست سرية إطلاقاً، إن القسم تبعاً لذلك مهزلة لا معنى لها.

وإذا ما اعترض بأنه بإعطائي الإشارات والمصافحات والكلمات بصورة تامة وكاملة فإنني بذلك أقوم بمخالفة لا حاجة لها بنشري مسائل لا تمت بصلة إطلاقاً للمعنى الحقيقي الذي تقصده الماسونية، فإن باستطاعتي أن أجيب بأنني أفعل ذلك لسببين، ولا لأثبت رأيي بأنه لا يوجد هناك أية أسرار في الماسونية ولذلك فإن الواجبات المهيبة أي أشكال القسم الوقورة ما هي إلا مهزلة بل إنها باطلة ولا أساس لها من الصحة. وثانياً لو قمت بنسخ الطقوس وأعدت إنتاجها غير كاملة في هذه المفردات فقد يُدس ويوحى بأنها غير كاملة في مفردات هامة أخرى أيضاً، وإن المعرفة الخارجية لها لا يمكن إلا أن تكون جزئية جداً. إنني على تمام المعرفة بأن كل محاولة ممكنة ستبذل من أجل تكذيب وتشويه سمعة وحظر هذا الكتاب وربما يتم الصفح عنه وتغتفر زلته للرغبة في إحباط مثل هذا العمل سلفاً.

إنني أعتقد بأن سراً يشترك فيه نصف مليون شخص في بريطانيا وحدها والذي يمكن اكتشافه فوراً على أرفف أية مكتبة جيدة لا يكمن أن ينظر إليه في نفس الضوء الذي ينظر فيه إلى سر شخصي أو عائلي والذي إذا تم اكتشافه عن طريق التحديق والتطفل أو بالصدفة سيكون من العار إفشاؤه وهتك أستاره. فإذا كانت إعادة نسخ ومعالجة الأسرار والخفايا الماسونية التي هي حكر على خاصة الخاصة تعتبر حنثاً بالقسم وحلفاً بالكذب بصورة غير مباشرة، عندئذ سيكون

قيام العديدين من العلماء والكلاسيكيين بأبحاثهم في أنواع الديانات والعبادات الخفية السرية الغامضة التي ترجع إلى الماضي ينبغي أن يدرج تحت نفس الإدانة والمنع والحظر. فالخفايا والطقوس التي كان يمارسها الإيليسين من عبدة الظواهر الطبيعية في اليونان القديمة، على سبيل المثال، كانت سراً، فهل سمح بهذا على أساس أنهم ماتوا وأن الماسونية لم تمت، ولكن لنفرض فقط من أجل النقاش والمجادلة، أنه اكتشف في بعض القلاع الإيجية القديمة المنعزلة أن هذه الطقوس والشعائر لا تزال محفوظة حية إلى الآن. فهل يجعل هذا الأبحاث التي يقوم بها العلماء شيئاً مخزياً وفاضحاً؟

كذلك إنني على تمام الاقتناع بأنه بالنسبة لأي مسيحي يقوم بإلزام نفسه بمنظمة دينية (أو حتى يتجنب السؤال، بالانتساب إلى منظمة شبه دينية) تؤدي الصلوات والأدعية والعبادة لله والتي تستبعد عن عمد اسم سيدنا ومنقذنا يسوع المسيح، والذي باسمه فقط يتم الخلاص، ما هو إلا مرتد، كما أنني على تمام المعرفة بأن هناك العديد من المسيحين، بل وحتى رؤساء الأساقفة، هم أيضاً ماسونيون لا ينظرون إلى هذا الأمر بهذه الطريقة إما لأنهم لا يأخذوا طقوسهم على محمل الجد، أو لأنهم يفسحون المجال لاعتبارات أخرى مثل أعمال الخير والبر والإحسان والاستقامة الخلقية للأخوية الماسونية، بأن ترجح على المضامين الوثنية الواضحة في صيغها. إن الإنجليزي بيلاجوس (أي منكر للخطيئة الأولى) في صميم قلبه، لذلك فإن أملي المخلص هو أن يكون هذا الكتاب ليس صالحاً فقط لإعطاء المعلومات لغير الماسوني بل لعله أيضاً يهدي الماسوني المسيحي سواء السبيل ويجعله يعيد النظر في موقفه. لعله يسأل نفسه منذ البداية هل مباح ومشروع أخلاقياً أن يلزم نفسه سلفاً، عن طريق أداء قسم على الإنجيل، بالمحافظة على السرية والإخلاص والأمانة لمنظمة معينة وتدعو إلى عقيدة وأخلاق لم يكشف له أي شيء منها سابقاً ولم تشرح له أهدافها مسبقاً؟ هذا هو حجر العثرة الأولى التي يواجهها الماسوني المسيحي الذي هو على تمام الاطلاع والمعرفة باللاهوت الأخلاقي والقيم الدينية.

(٣)

الواجبات الماسونية

أي أشكال القسم المقررة

قالت الملكة «أرى أن تقطع رؤوسهم. وعلى هذا فقد تقدم الجلاد، وبقي ثلاثة من الجنود ورءاه من أجل إعدام البستانيين الثلاثة الذين فروا ملتجئين إلى أليس لحمايتهم.

فقالت أليس «سوف لا تقطع رؤوسكم» ثم وضعتهم في حوض أزهار كبير في مكان قريب. عندها قام الجنود الثلاثة بالتجول لدقيقة أو دقيقتين بحثاً عنهم، وبعدها ساروا بعيداً بحثاً عن آخرين.

صاحت الملكة «هل قطعت رؤوسكم»؟

فصاح الجنود رداً على الملكة «لقد ذهبت رؤوسهم إذا كان ذلك يسر جلالتك!.

فصاحت الملكة «هذا شيء حسن. هل باستطاعتكم لعب الكروكي (الكرة الخشبية)؟».

فقالت أليس: «ما هو هذا الهزل والمزاح»؟

فقال جريفون: «لماذا، إنها ـ أنه من صنع خيالها، لأنه إنهم لم يعدموا أي شخص إطلاقاً كما تعلمين».

لويس كارول ـ أليس أند ووندر لاند

إن صيغ القسم، أو الواجبات المقدسة كما يعبر عنها في الطقوس والشعائر، قد تثير شكوكاً بين الماسونيين المفكرين أنفسهم أكثر مما تثيره أية

نواح أخرى من الممارسات الماسونية، والنص الكامل لهذه الواجبات المقدسة، والمناسبات التي تؤدى فيها ستكون موجودة في الدرجات الماسونية كل فيما يخصه، ولا حاجة لإعادتها مرة ثانية بصورة مطولة.

ويؤدي المرشح هذه الأشكال من الإيمان وهو راكع وإحدى يديه على إنجيل مفتوح. ويقوم الشمامسة بجعل صولجاناتهم تتقاطع فوق رأسه، وبالرغم من أن الأستاذ الموقر كان قد أعلن بأن القسم لا يحتوي على أي شيء يمكن أن يتناقض مع واجباته الاجتماعية والأخلاقية والدينية، إلا أن المرشح يجد نفسه يعيد وراء الأستاذ عبارة إثر عبارة، تعابير من تلك التي لم يسبق له إطلاقاً أن استعملها إلا في المزاح أو التجديد. ويعتبر نفسه عرضة ومستحقاً لأن يسام سوء العذاب وأنواع التشويه والتمثيل إذا ثبت أنه غير مؤمن. وأن حنجرته ستقطع، ولسانه يقتلع، ويشق الجانب الأيسر من صدره، وتشطر جثته شطرين، وتتحول أمعاؤه إلى رماد، ويفصل رأسه عن جسده، وتقطع يده اليمنى، ويلقى به على كتفه الأيسر ليذوي ويهلك.

وربما يكون في أيام الدراسة في المدرسة قد استخدم مثل هذه التعابير مثل «قطع حنجرتي وأتمنى الموت» مصحوبة بإيماءة مناسبة، وبذلك يكون قد أعطى إشارة العقوبة بصورة غير مقصودة والخاصة بالدرجة الأولى، ولكنه إذا كان قد نشأ وتربى في أسرة مسيحية فإنه بكل تأكيد سيكون لديه شكوك حول حلفه بهذه الكلمات وهو راكع على ركبتيه وإحدى يديه على الأنجيل.

كذلك يجب ملاحظة أنه بالرغم من أن قسم الدرجة الأولى يتعلق فقط بالسرية، فإن أشكال القسم الذي يؤدي في الدرجة الثانية والثالثة وفي القنطرة الملكية تحتوي أيضاً على مبادىء أخلاقية وولاءات معينة، والتي يحمل انتهاكها في طياته عقوبة الموت كذلك، حيث إن المرشح يقسم أنه سيقبل عقوبة أن يشطر إلى نصفين، مثلاً، إذا فشل في أن يطرد ويبعد بشجاعة ذلك المفتري الذي يحاول تشويه سمعة أخيه الماسوني، أو إذا كانت تضرعاته وتوسلاته اليومية لم تذكره بحاجة أخيه. كما أنه يعلن قائلاً: «إنني أقسم قسماً لا إثم فيه،

إنني سأراعي تطبيق كافة هذه النقاط دون مراوغة أو مواربة أو التباس أو تحفظات عقلية من أي نوع كانت، تحت وطأة أية عقوبة».

كما ينبغي التسليم بأن معاملته لدى دخوله في العضوية تكون أكثر منطقية، فقد أدخلت عقوبة بديلة (ربما في تحريف أو تعديل متأخر) تسمه على أنه «خال من كل قيمة أخلاقية» الخ، ولكن في إنجلترا واسكوتلندا، على الأقل، فإن هذا يظهر فقط في نوع القسم الذي يؤديه المبتدىء الداخل حديثاً؛ مع الافتراض بأنها تطبق بصورة متساوية على العقوبات المنصوص عليها في الدرجات الأخرى عندما لا يوحي وجودها بأنها تعني «المراوغة والمواربة».

كذلك فإن الواجبات المقدسة وأنواع الممارسات الإيرلندية أكثر منطقية، حيث يتم أداؤها في كل درجة حيث يقال: «واضعاً في ذهني العقوبة القديمة.. وملزماً نفسي بأن تحل بي العقوبة الحقيقية بأن أوسم بأني بائس جدير بالاحتقار والازدراء». الخ. قد ساعد ذلك على تخطي بعض الصعاب. ولكن كيف يتأتى للأسكتلنديين أو الإنجليز أن يتخطوا صعابهم؟.

إن المسألة محفوفة بالصعوبات والمعضلات.

فإما أن تعني الأيمان التي تؤدي ما تنص عليه، أو لا تعني ذلك، فإذا كانت تعني ما تقول، فإن المرشح عندئذ يكون قد دخل في اتفاقية تقضي بأن يتم قتله هو نفسه بواسطة أنواع من العذاب البربري الهمجي والتشويه وتقطيع الأوصال إذا أفشي ذلك السر أو نكث بذلك العهد والقسم المقدس. وإذا لم تكن تعني ما يقول فإنه يكون عندئذ قد أقسم بسخف طالب مدرسة بصورة رنانة طنانة على الأنجيل، الأمر الذي تضعه على حافة التجديد وتدنيس المقدسات.

ومرة ثانية، في قسم الدرجة الثالثة الماسونية، نجد أن المرشح يقسم بأنه سوف يحترم ويحافظ على أسرار أخ ماسوني، «من قتل وخيانة، وجنحة وكافة أنواع المخالفات الأخرى التي تتعارض مع قوانين الله وشرائعه والأوامر التي تعتبر شاذة وغير مقبولة في كافة الأوقات في أي مجال من المجالات أو مكان من الأمكنة».

ومما لا شك فيه أن هذه الفقرة تحافظ على صيغ القسم من أن تصبح في تناقض مع قوانين البلاد. حيث إنها تزيل أي اشتباه في أن باستطاعة ماسوني إنجليزي محترم أن يكون منشقاً سياساً، أو محرضاً على الفتنة والعصيان، مع ذلك فإن هذه الفقرة ذاتها التي تضمن المحترمية الماسونية، تجعل، في نفس الوقت، العقوبة التي تتبعها، سخفاً وهراءً. لأنه بالرغم من أنه لم ينص في أي مكان أو حتى يلمح تلميحاً إلى من سيعهد إليه بمهمة تنفيذ العقاب، فإن الواضح الجلي أنها معارضة لقوانين الله وللأوامر التي يقضي بأنها يشطر المرء إلى نصفين وتتحول أمعاؤه إلى رماد لأية مخالفة مهما كان نوعها. حيث إنه إذا رئي أستاذ قديم يجول في الشوارع وقد انتهى رسغ يده اليمنى في جَدَعة، وقل ألقيت يده الذابلة والتالفة على كتفه الأيسر، فإن له كل الحق في استدعاء الشرطة للقيام بحماية من المزيد من الأعمال البالغة الغرابة في بشاعتها.

إن الجواب البسيط الذي تمليه الفطرة السليمة على هذه الصعوبات والفظائع هو أنه لا يوجد هناك أي ماسوني يأخذ المعنى الحرفي لهذه الصيغ من الأيمان المقدسة وأنواع الحلف. حيث إنه سيقول بأن التعهد بالتزام السرية، قد اتخذ في الحقيقة بصورة جدية، إلا أن العقوبات من الناحية الأخرى رمزية محضة، وينبغي فهمها بالمعنى الإيرلندي.

ولكن بينما هذا الأمر صحيح بكل تأكيد، إلا أنه لا يزيل الاعتراضات، فالتفسير الرمزي يعني أن الماسوني عديم الإيمان يستحق أقصى غايات العقوبة البدنية حتى ولو لم يكن بالإمكان ولا ينبغي إيقاعها، كما أن الماسونيين أنفسهم سيكونون أول من سيعبرون على الرعب والهلع فيما لو تم إيقاعها إطلاقاً، إن ذلك القتل الماسوني المشتبه به بصورة قوية الذي حدث في السنوات الأخيرة، ذلك القتل المتعلق بوليام مورجان، في ولاية نيويورك عام ١٨٦٢، قد قاد إلى استقالات جماعية من المحافل الماسونية، بالإضافة إلى إنكار المسؤولية، والكسوف العام الذي أصاب الأخوية الماسونية في الولايات المتحدة الأمريكية بعض الوقت، بينما تفرض الناحية المنطقية عليهم أن يمجدوا تلك الحادثة على

أنها عمل من أعمال تطبيق العدالة التي تتفق وتتلاءم مع أنواع القسم التي تم أداؤها على الكتاب المقدس. إلا أن هذا في حد ذاته يبين عدم واقعية هذا الوضع، ومهما كان شكل أو نوع التأويلات والتفاسير الرمزية، فإن أنواع القسم تعني ضمناً بأن الطيش والحماقة التي توصل إلى الكشف، على سبيل المثال، عن هوية العمودين القائمين على مدخل هيكل الملك سليمان بكلمات الدرجة الأولى والثانية، تستحق نوعاً من التعذيب البربري غير المسيحي الأكثر قسوة وبشاعة من الذي يفرضه المجتمع على الخيانة العظمى، والاغتصاب والقتل، بل حتى أن الشرع والتأويل الرمزي ينتهك حرمة العدل والانسجام والمنطق.

وبالرغم من أن التفسير الرمزي للفقرات التي تتعلق بالعقاب مقبولة عالمياً في الممارسة العملية، فإن من المستحيل أن يتمشى أو ينسجم مع التصريح الدقيق وطبق الأصل والصيغة الفعلية التي تم القسم بها على الإنجيل وفي الحضرة الإلهية «دون لبس أو غموض أو مواربة أو تحفظات عقلية من أي نوع كان». وهذا يلغي ويبطل أية إمكانية لأي فقرة في أنواع القسم أو ما يسمى بالواجبات المقدسة، أن تعني غير ما يقول، أو أن تؤخذ بمعنى مختلف عن ذلك الذي تم التعبير عنه بكل جلاء وضوح.

وبالطبع، يوجد هناك، الحجة القديمة التي ورثناها عن الماضي الغابر. وتقول هذه الحجة إن هذه الأنواع من القسم ما هي إلا علامات على الحدود وأشياء لا تقدر بثمن من الماضي البدائي أقل حساسية ومغالاة إزاء العدالة المثلمة والتي تستعمل لتمشية الحال، مما هو موجود الآن في بلادنا. إلا أن الزمن بحد ذاته لا يبرر أو يجعل من الخطأ صواباً ومن الباطل حقاً. فالمنطق يقول بأن هذه الحجة يمكن أن تطبق على ما هو باق من الإفراطات التي كانت تمارس في احتفالات باخوس إله الخمرة عند الرومان في الإسراف في الشرب والعربدة.

ولعل المسيحين يشعرون تماماً بأن العقوبات ليست وحدها التي لا تنسجم إطلاقاً مع الجريمة ولا تتوافق معها، بل إن أنواع القسم نفسها، التي تؤدى على

الإنجيل في جو من المهابة الدينية، هي تعتبر تجديفاً وتدنيساً للمقدسات، ومما لا شك فيه أن هناك العديد من الماسونيين، وبينهم المسيحيون، ممن يفاقمون هذا التجديف عن طريق اتخاذ الجانب الديني الماسونية بصورة خفيفة تكاد لا ترى أو يتم الإحساس بها، وبفعلهم ذلك قد يشعرون بأنهم ناجون من الإدانة بأنهم ينتمون إلى ديانة غريبة، ومع ذلك فإنهم في نفس الوقت بفعلهم ذلك يريدون فقط في نسبة التجديف وانتهاك المقدسات الموجودة في تلك الأنواع والأشكال من القسم والإيمان التي يؤدونها على الكتاب المقدس.

فإذا كانت الماسونية، التي تعترف بأنها مبنية على ممارسة كل الفضائل الأخلاقية، إذا كانت تدعي أن هذه الأيمان وأشكال القسم المقدسة بما تحويه من عقوبات متعطشة لسفك الدماء هي منسجمة ومتلائمة مع المسيحية، فإن المرء ليعجب فيما إذا كان الماسوني المسيحي سيرى أي شيء من عدم الملاءمة في تقريب كتاب الصلوات العامة من الاستخبارات الماسونية، لنفرض، على سبيل المثال، أن مرشحين لتثبيت العماد طلب منهم تأدية قسم يقولون فيه «إنكم بهذا القسم، أمام الله ووجوده، تجددون الوعد المقدس وتقسمون أن ذلك تم باسمكم لدى تعميدكم ـ تحت عقوبة لا تقل عن حزّ حلاقيمكم عرضاً، واقتلاع ألسنتكم من جذورها، ودفنكم في رمال أعماق البحار»؟ وإذا كان يحق للمسيحي أن يؤدي مثل هذه الأيمان في هيكل ماسوني مكرس لله، فلماذا يبدو قسم مماثل له على أنه تجديفي (مهما تم شرحه وتأويله بصورة رمزية) إذا تم أداؤه في كنيسة مكرسة لله؟.

من المحتمل أن يكون الجواب الوحيد هو أنني آخذ هذه الأمور بمنتهى الجدية، ولكن هذا الجواب يمكن أن يعني فقط أنه حلال ومباح أخلاقياً لأي مسيحي أن يؤدي قسماً مقدساً على كلمة الله وباسمه المقدس ـ ومع ذلك أن لا يحمله على محمل الجد.

لقد قمت بإرسال نسخة من هذه الواجبات الماسونية المقدسة (أشكال القسم) مع الأصل إلى الكاهن في. ايه. ديمانت، الأستاذ الملكي (يحتل كرسياً

بمنحه ملكية في جامعة) في علوم الأخلاق واللاهوت الرعوي في جامعة أكسفورد، وطلبت منه إصدار حكمه فيما إذا كانت هذه الواجبات والالتزامات تحل أخلاقياً للمسيحي أن يؤديها. وكان جوابه (والذي كان مشروطاً ومبنياً على دقة نسختي، والذي ظهر في هذا الكتاب) على النحو التالي: «إذا نظرنا إلى طبيعة هذه الأشكال من القسم بصورة عامة فإنه يبدو من الصعوبة بمكان لأي مسيحي أن يلتزم بها دون أن يكون مذنباً بارتكابه، أما القسم «العابث» أو القسم «الطائش» المستخف بالمقدسات. كما يبدو أنه قد أدخل عضواً في ديانة غريبة. أما إذا لم تؤخذ على محمل الجد ـ أو أخذت بمنتهى الرمزية (بصورة منافية لكلمات القسم! بدون مواربة أو مراوغة أو تملص، أو أية تحفظات عقلية من أي نوع)، عندها يدخل القسم تحت عنوان الحلف العابث أو التجديف. أما إذا اتخذ بصورة جدية فإنه عندئذ يجب أن يدرج ضمن الحلف الطائش، لأنه لا يوجد هناك أي يقين أو ما يؤكد بأن العضو المسيحي في الماسونية سوف لا يكتشف فيما بعد أنه قد التحق بديانة غريبة.

وهناك صعوبة أخرى في الشرح والتأويل الذي قد تظهر للماسوني ذي الضمير الحساس، ألا وهو الغموض الذي يكتنف ما يعتبر سراً، فهو يعد بأنه سوف لا يقوم إطلاقاً بإفشاء «أي جزء أو أجزاء، نقطة أو نقاط من الأسرار والخفايا» الخاصة بالماسونية، بالرغم من أنه لم يعين بصورة محددة في أي مكان ما هو سري وما هو غير سري، أما وقد تم أداء القسم، فإن الأستاذ المبجل يبلغ الداخل في العضوية بأن أسرار هذه الدرجة «تتألف» من إشارة ورمز وكلمة» ـ التي ستبدو بأنها تشير إذا أخذت بصورة جدية على أنها تعني ما تعنيه عادة، تشير إلى أن أية مسائل أخرى قد يتعلمها الداخل في العضوية أما أن لا تكون سرية أو أنها داخلة ضمن المصطلح «خفايا». وعلى أي شرح أو تأويل فإن نشر وبيع بصورة علنية وعامة الطقوس المطبوعة يبدو حتماً واضحاً بالقسم وانتهاكاً للواجبات المقدسة. بل إنه عندما يشير أو يشرح الداخلون في العضوية الكلمات السرية، فإن من الصعوبة بمكان فهم بأي روح يقوم المؤلفون

الماسونيون والطابعون بالعمل لدى الناشرين الماسونيين الذين تعهدوا بأن لا «يكتبوا تلك الأسرار، أو يفرغوها في قالب رسمي، أو ينقشوها، أو يحفروها على المعدن أو الخشب الخ، أو يقوموا بطريقة أخرى برسم الخطوط العريضة لها، بحيث يمكن لأي حرف أو رمز، أو شكل، أوأي أثر ضئيل لأي حرف أو رمز أو شكل، أن يصبح واضحاً مقروءاً أو غير مقروء». وعلى هذا فإن الماسونيون الذين يمتلكون ويستخدمون هذه الطقوس سيبدون مساعدين ومحرضين على ارتكاب تلك الجرائم «والجرائم» بكل تأكيد ليست كلمات مبالغ فيها، لأن أنواع القسم تبين بصورة واضحة جلية أنها تستحق عقوبة الموت، إذن، بأي معنى تم اتخاذ هذه الأيمان، فإن من الواضح أنها ليست «بدون مواربة أو مراوغة أو أية تحفظات عقلية من أي نوع كان» إن الحقيقة القائلة بأنه لا يوجد هناك أية أسرار حقيقية مهما كان نوعها في الماسونية، يضيف نوعاً ما إلى استحالة وعدم واقعية وعدم إخلاص هذه الأيمان والواجبات المقدسة، المنافية للطبيعة والعقل، وبالرغم من أن المرشح قد يكون على تمام الجهل بها، إلا أنه في الواقع قد ألزم نفسه، فيما يتعلق بالسرية، بالمحافظة على شبكة هائلة من الخدع والأكاذيب وعدم البوح بها.

إن أي ماسوني مخول بأن يعلن للعالم قاطبة أن الماسونية البريطانية تؤمن بالله، وأنها مخلصة وموالية للدولة، وتقيم الملاجىء الخيرية والمستشفيات، وإنها بفضل هذه الأشياء محبوبة ومحترمة تماماً وإنها فوق الشبهات ولا يرقى إليها الشك، كذلك لا يوجد هناك سر فيما يتعلق في كون الماسونية عبارة عن نظام من الأخلاق الرمزية، ومن هنا فإنها حصلت على موافقة العالم. إلا أن «الأسرار والخفايا» بالإضافة إلى أساليب التعرف يبدو أنها تظهر حيث تنحرف التعاليم والممارسات الماسونية عن المسيحية المألوفة والمعروفة، ليس ذائعاً ولا منتشراً في الخارج أن طقوس الموت والبعث تمارس في الدرجة الثالثة وأن أسماء الآلهة الوثنية مساوية ومعادلة ليهوه في القنطرة الملكية، وأن أشكال التعذيب الخيالية مرتبطة الحنث بالأيمان. ومن أجل الإنصاف، فإن الماسوني

العادي يتمسك بحرفية قسمه عن طريق عدم التحدث عن الماسونية إطلاقاً، وتغيير موضوع الحديث بصورة لبقة ما أمكن. ومع هذا إذا أجبر على الدفاع فإنه سوف لا يذهب بعيداً في الخطأ والصواب وأن يتبع التعاليم الماسونية في تقبل بكل حرية وعن طيبة خاطر تلك النقاط غير المتفق عليها، ولكن عليه أن يبقي كأسرار وخفايا مثل تلك النواحي التي قد تثير الاحتقار والاستهجان أو عدم الاستحسان أو الإدانة.

إلى أي مدى تكون الأيمان والواجبات المقدسة ملزمة في الضمير عندما يتم أداؤها؟ من الصعب إعطاء جواب دقيق شامل لعضو في كنيسة إنجلترا، بالرغم من وجود بعض المبادىء والقواعد الدليلية المرشدة.

فقد يثبت فيما بعد أن قسماً كان «قسماً عابثاً أو طائشاً، ومن ثم فهو ذنب ويكون مرتكبه مذنباً، ولكن هذا بحد ذاته لا يبطل القسم إذا تم أداؤه بإيمان راسخ وعقد القلب على الالتزام به.

ومن ناحية أخرى، فإن قسماً يؤدى على أساس مظاهر زائفة دون عزم أو إيمان راسخ، يعتبر لاغياً وباطلاً لنفرض، ولنأخذ مثالاً في غاية التطرف وعدم احتمال الحدوث، لنفرض أن هناك شخصاً مهتماً بالأعمال الاجتماعية أدى قسماً بالولاء والإخلاص والمحافظة على سرية منظمة ما، مبنياً على فهم واضح جلي لهذا الواجب المقدس وهذا القسم، بأن هدفها كان توفير بيوت تقضي فيها الأمهات المتعبات أيام أعيادهن وإجازاتهن. وبعد أداء هذا القسم ظهر له أن الهدف الحقيقي لهذه المنظمة هو إسقاط قنبلة ذرية على قصر باكنجهام. من الواضح أن إخلاصه وولاءه للمنظمة لم يكن ملزماً بالنسبة لضميره، لأنه اتخذ على أساس زائف وكاذب، ولا يمكنه الوفاء به دون أن يقع في الذنب. ولكنه في هذه الحالة كمواطن مخلص لوطنه سيشعر بصورة قوية بأن السرية أيضاً ليست ملزمة له. وإن من واجبه إبلاغ الشرطة، لأنه سيكون مذنباً ذنباً خطيراً بإهماله الواجب والولاء للوطن إذا لم يبلغ الشرطة بذلك.

والآن وقد أخذت أنواع القسم الماسوني على الفهم الصريح الواضح بأنها لا يمكن بحال من الأحوال أن تتناقض مع واجبات الإنسان الاجتماعية أو الأخلاقية أو الدينية. مما لا شك فيه أن حضرات الأساتذة المبجلين الذين يقومون بإجرائها بإيمان قوي راسخ صحيح كما أنهم هم أنفسهم لا يرون احتمال وجود أي تناقض من هذا النوع.

كذلك فإن الأكثرية الساحقة من الماسونيين الذين يؤدون هذه الأيمان، حتى من أولئك الماسونيين المسيحيين الطيبين، لا يبدو أنهم على علم بوجود أي تناقض ويرجع في معظمه، على ما أعتقد، لأنه لا يوجد لديهم إطلاقاً أي سبب يدعوهم إلى بحث الوضع بصورة منطقية على ضوء إيمانهم وعقيدتهم الدينية. ومن الواضح أن سواد أعضاء الأخوية الماسونية لا يمكن أن يتوقع منهم أن يكونوا علماء لاهوت أخلاقي، وبالرغم من أن العقوبات الرهيبة غالباً ما تتنافر مع مشاعرهم الطبيعية عندما تتلى لأول مرة، كما أن بعض أجزاء من الطقوس والشعائر قد تبدو متنافرة ومختلفة بصورة غريبة عن ما قد يسمعونه في الكنيسة، إلا أن الألفة والاعتياد عادة ما يقضي على الشكوك مع مرور الزمن. ولكن إذا وصل الداخل في العضوية الماسونية إلى التحقق من أن الماسونية، في اعتبارها كافة الآلهة متساوين، أو في تقديم الصلوات والأدعية التي تستبعد عن عمد السيد المسيح، أو في إعلانها اسم الله بموجب مصطلحات وتعابير الآلهة الوثنية كما هي الحال في القنطرة الملكية (تلك الأشياء التي لم يكشف له النقاب عنها عندما انتسب إلى العضوية) عندما يصل إلى التحقق من أنها تنتهك المبادىء والعقائد المسيحية، فإن القسم عندئذ يتوقف عن أن يكون ملزماً من ناحية الضمير والإحساس به. قد يبقى الالتزام بالسرية، ولكنه إذا شعر بصورة قوية بأن الماسونية، حتى ولو بصورة غير مقصودة ولا متعمدة تنسف عن طريق هرطقتها القوية الشاملة، تنسف من الداخل الجلال الأسمى الواجب لسيدنا المسيح والحضور المتميز والمقصور على الكنيسة والذهاب إليها، بصورة مدمرة، تماماً كما تنسف قنبلة ذرية تلقي على قصر باكنجهام والدستور البريطاني من أساسه

وتدمره تدميراً ولذلك فإن مما لا شك فيه أنه سيكون من المواضيع الخاضعة للجدل والمناقشة بأن عليه واجباً حتمياً إزاء ضميره ليتكلم حذراً ومنذراً.

«إذا أقسم أي شخص بصورة طائشة بشفتيه أن يعمل شراً، أو أن يعمل خيراً، مهما كان ذلك الشيء الذي نطقه ذلك الشخص في قسمه، وكان مغيباً ومخفياً عنه، فإنه عندما يعرفه، يكون مذنباً في واحد من هذه الأشياء، ويكون ذلك عندما يعترف أنه بعمله هذا قد أذنب وارتكب إثماً».

(ليفيتكوس ـ ٥ ـ ٤ ـ ٦)

(٤)

هل الماسونية دين؟

«سواء كانت فترات الضباب هي التي تنتج الأشخاص الجادين أو أن الأشخاص الجادين هم الذين ينتجون فترات الضباب.

إنني لست أدري، ولكن المسألة برمتها شديدة الوطأة على أعصابي.

أوسكار وايلد ـ مروحة الليدي ويندرمير

غالباً ما تعلن الماسونية أنها ليست ديناً، ومع ذلك فإنها تدعي التقوى والورع. بل حتى أن المرء قد يسمعها بصورة غير رسمية تذكر بأن «الماسونية ليست ديانة معينة، إنها دين» فإذا كانت الماسونية شيئاً جديداً، وإذا كانت الطقوس الماسونية قد تكونت في هذه السنة فقط، وقدمت إلى هيئة من الأساقفة الحياديين لإصدار حكمهم واستحسانهم وبركاتهم فإنه سيكون هناك قليل من الشك في أنه سيتم رفضها باحتقار وزادراء بصورة مضحكة، ولكن بينما يقوم العديدون من رجال الدين البارزين بإنكار أن الماسونية ديانة، ويتوقعون من الشخص الخارجي أن يأخذ كلمتهم دون مناقشة أو تمحيص، إلا أن هذا الشخص الخارجي أحياناً يكون شاكاً، وله العذر في ذلك، ومستغرباً بصورة مشروعة، كيف سيقوم رجال الدين هؤلاء بتحديد كلمة دين، التي يبدو أن هناك تفكير غامض مشوش يدور حولها، كما لم يصح إطلاقها على الماسونية، وإنكر عليها اسم دين، فمثلاً، كتب نيافة الكاهن إي. باتون ويليامز، المساعد السابق

للقسيس الأعظم ومساعد الأستاذ الأعظم في إيت لانكشاير في رسالة وثنية محضة بمناسبة عيد الميلاد إلى صحيفة «فريميسونز كرونكل (٢٢ ديسمبر ١٩٥١) كتب يقول: «إن أفلاطون هو الذي قال إنه يجب علينا أن نتنظر واحداً، أو إلهاً أو شخصاً يشبه الإله، الذي سيعلمنا واجباتنا ويزيل الغشاوة والعمى عن أعيننا، إن الماسونية تؤدي هذه الرسالة بطريقة لا شك فيها ولا لبس إن الماسونية تبشر بعيد الميلاد». إن أية رسالة خاصة بأعياد الميلاد من رجل دين يحذف بصورة متعمدة أي ذكر للمسيح، يمكن أن تعتبر ظاهرة لاهوتية غريبة ولافتة للنظر، إلا أنه من الصعب القول بأن الكاهن باتون ويليامز لا يشير هنا إلى الماسونية على أنها دين، مهما بلغت في وثنيتها كما أن المساعدة القسيس الأعظم السابق بكل تأكيد بعض الصلاحيات للتحدث عن الطبيعة الدينية للأخوية الماسونية.

كيف يتأتى للمرء أن يصدر حكماً عادلاً في هذه المسألة الحاسمة؟

من الواضح أن الماسونيين المسيحيين لا يمكنهم الموافقة على كثير من الكلمات التي توحي بأن الماسونية دين، لأن المسيحية دين كلي مقصور على أعضائه والمنتمين إليه، بل وحتى القبول بمثل ذلك الاحتمال سيثير الشكوك وربما يستدعي إجراء تحقيقات بشأن تلك الكنائس التي لم تشجبها بصورة علنية بعد، إذ لا يمكن ولا ينبغي أن يكون هناك، بالنسبة إليهم، أي منافس أو ما يصل إلى مستوى المطالب السامية والمثل العيا للمسيح. لذلك وبغض النظر عن بعض الإشارات الضمنية الواضحة الجلية الموجودة في الطقوس والشعائر والبيانات الصادرة عن أعضائهم بالنفي، إنها وصيفة وخادمة للكنيسة، وإنها قاعدة أخلاقية قوية يمكن لأي دين أن يمارس على أساسها، ولكنها ليست أكثر من اتحاد الأمهات أو منظمة حركة الكشافة العالمية.

دعنا نكون منصفين في هذا الموقف، ففي الدرجات الثلاث للأخوية الماسونية، درجة الداخل المبتدىء، والزميل في الأخوية. والماسوني الأستاذ نجد أن «الأسرار» المحددة هي في الحقيقة ليست أكثر من أساليب في التعارف

المتبادل عن طريق مصافحات معينة، وإشارات، وكلمات، والتي ستثبت معرفتها (بالإضافة إلى شهادة المحفل الأعظم) إن الشخص بعد الامتحان قد أصبح ماسونياً، وفي الحقيقة قد يبدو أن هذا الأمر لا ضرر فيه ولا غبار عليه. أما بقية الماسونية بالنسبة لهم فإنها تهتم برمزية بناء السلوك والأخلاق، كما أن مما لا شك فيه أن الأخوية الماسونية تحدد نفسها وتصفها على أنها «نظام أخلاقي خاص متميز، تحجبه أنواع من المجازات والاستعارات وتوضحه الرموز» وعلى هذا فإن بعض الحوادث المعنية، وخاصة الأشياء المتعلقة بالأبو كريفا (أربعة عشر سفراً ملحقة بالكتاب المقدس لا يعترف بالبروتستانت بصحتها) والتي تهتم بمبنى هيكل الملك سليمان. هي من صميم الاستعارات والمجازات، كما أن الأدوات ووسائل العمل التي تستعمل في بناء الأحجار (وخاصة، بصورة طبيعية، تلك الأدوات المعروفة تماماً والمشهورة المثلث والفرجار) التي ألحقت بها التعاليم الأخلاقية، كما أنها من بين الرموز.

لقد قال رئيس هيئة الأهداف العامة مخاطباً المحفل الأعظم في سبتمبر عام ١٩٤٩ : «إننا منظمون لتوفير سلسلة من المحافل التي يمكن للماسونيين فيها الاجتماع في جو مقدس، حيث يمكن للزمالة الخيرة أن تترقى وترتفع عبر أخوية أقيمت على أبوية الله، وحيث يمكن أن نكون سعداء في سرية مبنية على الثقة المتبادلة وحيث أيضاً يمكن للأخلاق أن تصاغ وتقوى وللمواهب والميول أن تتطور، بحيث إن أعضاءنا بذلك يتم تأهيلهم بصورة أفضل لممارسة تأثير صحي كمواطنين بصفاتهم وقدراتهم الخاصة على كافة المسائل العامة».

وهذا مقترناً بتوابل وبهارات الأسرار والطقوس وغياب مسائي في بعض المناسبات عن الزوجة، وفي بعض الحالات الحب الجامح بالألقاب وحب المظاهر وارتداء أحسن الملابس والملابس الرسمية، هي جماع ما تعنيه الأخوية الماسونية للأستاذ الماسوني العادي، كما أنها تبدو له بريئة ولا ضرر أو غبار عليها إطلاقاً بالنسبة له. قد يكون على علم بالاختلافات المتعددة في الطقوس مع العبادة الوثنية الفجة البدائية، التي تؤديها الوثنيون على سبيل المثال (للشمس

في الظهر)، إلا أن هذه العادات ينظر إليها بقايا قديمة الطراز من العهود الغابرة غريبة وطريفة. كذلك فإن معظم الماسونيين لا يأخذون طقوسهم وشعائرهم على محمل الجد، ومما لا شك فيه أنهم لا يقرؤون الكلمات «وورد» أو «ويلمشتر» أو «وبتي». لأنهم لن يفهموها لو حاولوا ذلك.

البيلاجوسي لدى العديد من الإنجليز الذين يفشلون في التمييز بين الدين والأخلاق. لذلك فإن «القياس المنطقي» التالي نموذجي: بما أن الدين موجود ليساعد الناس على أن يعيشوا عيشة طيبة، والماسونية تساعد الناس على أن يعيشوا عيشة طيبة، إذن فالماسونية دين، إلا أن ذلك الإنجليزي الجاهل، بصورة تعمها السعادة، للمظهر الخادع لعدم تبويب وتصنيف الأشخاص الوسطيين والمواقف الوسطية والمقتنعين بأن الدين هو ما يختار أن يفعله كل شخص بحسب وعيه. قد يمضي في المجادلة بأنه لما كانت الماسونية تعلم الأخلاق بصورة أكثر إمتاعاً وإثارة من الكنيسة، ولذلك فإنها ديانة أكثر قبولاً. إن كل شخص سينتهي مصيره إلى نفس المكان، وزوجته والكاهن يطلقان على هذا المكان «السماء» ولكنه يدعوه «المحفل الأعظم في الأعالي».

فإذا ما نظر إلى الماسونية على ضوء ما ذكر، فإنها أقرب إلى أن تكون ديناً منها إلى طفيلي يعيش على دين، كما أنها منافس للكنيسة كدليل ومرشد أخلاقي.

ولكن هناك شيئاً أكثر من هذا، إن هناك في الأعمال الماسونية عناصر متميزة خاصة بالدين أكثر مما تعنيه كلمة فوق طبيعي أو خارق للطبيعة إلى حد بعيد، نوع من الدين غير مسيحي كلية وعندما يقوم الماسونيون باتهام منتقدي هذه العناصر بأنهم يسيئون معنى الماسونية إساءة تامة، فإن ما يحدث هو أن هؤلاء النقاد يلفتون الانتباه إلى أشياء لم يسبق إطلاقاً للعديدين من الماسونيين ورجال الكنيسة على وجه الخصوص أن رأوها أو أنهم يفضلون تجاهلها.

ولقد قمت حتى الآن بمقاومة الإغراء بالقيام بعملية الهدم والبناء في هذه

القضية على أساس بيانات ودلائل الأسرار والخفايا الماسونية، بل فضلت أن أبني قضيتي على الطقوس والشعائر نفسها، إلا أنه يوجد هنا قطعة في كتاب أصدره السيرجون كولبورن (الشماس الأعظم الماضي في إنجلترا ونائب الأستاذ الأعظم السابق في أستراليا) يدعي «الماسونية، ما هي، متى، لماذ، فيما إذا» والذي يحمل تساؤلاً لأنه ينسجم مع الطقوس والشعائر، كما أن قلة من الماسونيين استطاعوا عدم الاسنجام والاتفاق معه بصورة منطقية. وقد كتب في هذا الكتاب يقول: «إن مسألة فيما إذا كانت الماسونية ديناً قد تمت مناقشتها والتنازع بشأنها بصورة جادة. ولكن يبدو أن الصراع كان مجرد حرب كلامية يتم فيها تراشق الكلمات، وربما تكون أفضل سبيل للتوصل إلى نتيجة ربما تكون أول وقبل كل شيء القيام بتعداد النقاط المشتركة بين معظم الديانات ومن ثم بحث وتقصي النواحي التي تختلف فيها الماسونية عن هذه الديانات فالدين يعالج العلاقة بين الإنسان وخالقه وأن نغرس في نفسه الاحترام والإجلال للخالق على أنه علة الوجود الأولى. إن الديانات تعج بطقوس العبادة عن طريق الصلوات والأدعية والتسابيح، إن تغرس قواعد السلوك عن طريق الرفع من الإله أو البطل على أنه نموذج يحتذى.. وسيكون من الصعب القول أي من تلك الخصائص تشكو الماسونية نقصاً فيها أو أنها معدومة لديها. مما لا شك فيه أنها تعج بكل ذلك فطقوسها وشعائرها دقيقة ومفصلة كما لا يمكن التفوق عليها في جمالها وعمق معناها. إن الصلوات والأدعية والتسابيح تنتشر في كافة أنحائها.. فإذا لم يقر بأن تتخذ الماسونية عنوان دين وأن تعتبر ديناً، فإنها قد تدعي أن أساساً أقوى وأسمى لأن تكون اتحاد ديانات، إنها شكل من أشكال العبادة يمكن لكافة الديانات أن تتوحد فيها دون التضحية بأي جزء من عقائد كل ديانة منها أو سمة منه».

إن كل هذه الحقائق، ما عدا الأخير، التي ذكر السيرجون كوكيورن يمكن أن تكون قيمة وملموسة بصورة كبيرة فالطقوس تتم ممارستها بروح من المراسم الدينية المهيبة، فهي عادة غالباً ما يتم فيها ترتيل وإنشاد الترانيم والتسابيح لدى

افتتاح المحفل ولدى اختتامه، كما تتم إضاءة الشموع أمام قواعد الأعمدة الثلاثة، كذلك فإن الكتاب المقدس مفتوح دائماً أمام الأستاذ الموقر. والتي تقدم للمرشح لدى إدخاله في العضوية وانتسابه إلى الأخوية، وقبوله وترفيعه وتمجيده. أما الإشارة العظمى والملكية فيضاهيها الهتاف والابتهال الذي يقول: «المجد الأعلى» وتعرف عادة الأماكن التي تجتمع فيها المحافل بالهياكل، وهي كلمة وثيقة الصلة بالعبادة والدين، كذلك يوجد لمعظم المحافل قسيس وعازف أورغن اللذان كان لهما دور منتظم يلعبانه في المراسم.

ومع ذلك قد يبقى الجدال بأن منظمات الكشافة تقوم بإنشاد الترنيم ولها قساوستها الذين يؤدون الصلوات ويرتلون الأدعية، التي على الأقل في الطرق العادية المكشوفة، يمكن أن تكون غامضة وتضم كل الورعين ورجال الدين، ومع ذلك فقد يكون الكشافة أعضاء ورعين تقيين في كنيسة بدون أن يكون هناك عدم انسجام أو تعارض، ومع هذا فإن الماسونية تذهب إلى أبعد من هذا بكثير، حتى ولو لم يفعل الماسونيون كأفراد ذلك.

بما أن الماسونية تدعي بأنها تنقل إلى منتسبيها نوراً روحياً وخفياً، فإن من الصحيح أن المرشح ينبغي أن يعترف بالإيمان بالله الأمر الذي يعني أن الظلام الذي كان يعيش فيه في السابق ليس ظلاماً تاماً كاملاً. ولذلك فإنه يجرد من أمواله ومقتنياته القيمة لدى انتسابه ليرمز بذلك إلى فقره، كما أن عصب عينيه يمثل نموذجاً لحالة روحية ومادية من الظلام الدامس. وكذلك فإن قطره وسحبه بالحبل إشارة إلى التواضع والانصياع، إنه يدخل إلى المحفل بالكلمات «مرشح بائس في حالة ظلام.. يتوسل بضراعة ليدخل في أسرار وطقوس وامتيازات الماسونية» وبعد أن يؤدي القسم ويصبح ملزماً يسأل «ما هي الرغبة التي تحتل سويداء قلبه؟» فيجيب «النور» وهذا أكثر اللحظات دراماتيكية في المراسيم، حيث إنه بمواكبة التصفيق الحاد من إخوانه المجتمعين تزول الغشاوة عن عينيه ويذهب التظاهر المفتعل، ولأول مرة يتمكن من رؤية المحفل. إن الأنوار الرمزية الماسونية التي أوضحت له الآن، هي ستة، كتاب القانون المقدس،

والمثلث، والفرجار، الشمس التي تضيء النهار، والقمر الذي يحكم الليل والأستاذ المبجل الذي يحكم المحفل» وكذلك فيما إذا كانت الإنارة التي يتلقاها كافية لتبرير العبارة العدوانية في قسم الدرجة الثالثة والتي تسم غير الماسوني على أنه «عالم شعبي غير مثقف يعوزه التعليم والإرشاد». ربما كان هذا موضعاً للشك والتساؤل، ومما لا شك فيه أنه في الدرجة الثالثة يمكن لهذا النور الماسوني أن يبين بصورة لا يتطرق إليها الشك، ليس فقط نقصها وتدني مستواها بل تبين عدم انسجامها الوثني كلية مع النور الذي يسكبه مولانا وسيدنا يسوع على القبر، حيث إننا أخبرنا بأن «نور أستاذ ماسوني ما هو إلا ظلام مرئي، يصلح فقط للتعبير على الظلام والغموض الذي يكتنف احتمالات المستقبل».

ومع هذا فإن الماسونية تعتقد وتؤمن بالخلود، حيث تعتقد أن الموت يمكن أن يسحق تحت الأقدام وأنه يعبر عن الأمل في «أنه عندما سنستدعى من هذا المقام الدنيوي، فإننا سنصعد إلى المحفل الأعظم في الأعالي حيث يقيم مهندس العالم العظيم ويحكم إلى الأبد» ولكن هذا الأمل في الخلود ليس في المسيحية، بل بالمثل الذي ضربه بالذي قام به بصورة دراماتيكية ذلك المرشح، سباك الناس الفينيقي الذي يشبه الأساطير حيرام أبيف، الذي فضل أن يموت بدلاً من إفشاء أسرار الماسونية. فمما لا شك فيه أنه يوجد هنا نموذج لما يقوم كل وثني في مرحلة العبادة البدائية البائدة، ومع ذلك فإنها أكثر من دراما. إلا أنها مع ذلك موجودة في الطقوس والشعائر بصورة رمزية كطقس ديني، ليس فقط كنموذج لسلوك أخلاقي. بل كممارسة شبه مقدسة، مع إعطائها أهمية أسمى من الواقع العملي المادي، رافعه المرشح، كما عبر عن ذلك المحاضرون «من مستوى الموت إلى مستوى الحياة القائم المنتصب» ويقول التاريخ التقليدي «وبهذه الطريقة فإن كافة الماسونيين الأساتذة قد رفعوا من موت رمزي مجازي إعادة الاتحاد مع رفاق شبكتهم السابقين ورفاق كدهم وكدحهم» والآن إلى أي شيء يشير هذا الرمز أو التعبير المجازي؟ إن هذه القطعة ماهي إلا تذكار يذكرنا بالأسلوب اللفظي الحافل بالمواعظ الوارد في كتاب صلوات مراسم التعميد «أن

يكون ميتاً في الخطيئة وحياً في الاستقامة. . وكأنه بذلك جعل مشاركاً في موت الابن (يسوع) كما أنه سيكون مشاركاً في بعثه ونشره. «فالصلوات في بداية هذه المراسم هي لعبدك الذي قدم نفسه مرشحاً ليشاركنا الأسرار الخفية لأستاذ ماسوني» ثم يواصل هذه الصلوات والأدعية فتقول: «فاضحة تلك القوة المنعة التي تمكنه من التغلب على الفشل ساعة الامتحان، ولكن ذلك، العابر بسلام تحت حمايتك ورعايتك عبر الوادي الذي يظلله الموت، قد ينهض في النهاية من قبر الخطيئة، ليلتمع ويتلألأ كالنجوم دائماً وأبداً. فإذا كان هذا (كما يبدو كما ورد أعلاه) يشير إلى مراسم وطقوس الموت التي ستتم ممارستها لاحقاً وكذلك إلى النهاية الأخيرة للمرشح في هذه الدرجة. فإنها تشير إلى أنها هي «الأسرار الخفية للماسوني الأستاذ» الذي سرق من القبر انتصاره (ما يشير إلى صعود المسيح من القبر) ولقد سبق للراهب بول أن كتب في رسالته إلى المحافل الماسونية الموجودة في كورينث يقول: «ولكن الحمد والشكر لله. الذي منحنا النصر عبر الأستاذ الأعظم حيرام أبيف».

إن حقيقة كون معظم الماسونيين لا يرون طقوس ومراسم الدرجة الثالثة على هذا الضوء قد تبرىء ساحتهم تبرئة تامة من خطيئة المشاركة عن عمد وإصرار وإرادة فيما وسمه الآباء الأولون للكنيسة في الديانات الباطنية الخفية المعاصرة، بأنه محاكاة شيطانية للعبادة المسيحية، ولكنها لا تبرىء ساحة الماسونية. التي بعد كل شيء تدعي (في الدرجة الأولى من محاضرة هيئة المتابعة) بأن استخداماتها وعاداتها وتقاليدها تقرب من تلك النماذج الموجودة في مصر القديمة. إلا أن الجهل بالشروح والتأويلات الواضحة والمنطقية لا تجعل الشروح والتأويلات، بطبيعة الحال وبالضرورة، زائفة وكاذبة.

حيث إن مسألة الخلاصية (الاعتقاد بأن الناس سينعمون في النهاية بالخلاص) في الماسونية يمكن شرحها وتأويلها بطرق مختلفة. فقد تم تقديم الله وسمي بعبارات قد تجعل كافة الديانات والعقائد المشهورة تتفق في أدنى مستويات الإلهية المجردة من أية صفات مميزة لأي نظام من العقائد المختلفة

بمفرده. فقد عرضت الماسونية على أنها عامل توحيد، لأن الأشخاص، في محافلها، من مختلف الديانات يمكنهم الاجتماع مع بعضهم لخيرهم المشترك ولأداء صلوات وأدعية مشتركة. ولكن الماسوني يقول بأن هذا يمثل الحد الأدنى من العقيدة ـ وليس الأصل في حالته المثلى ـ الذي يستحيل معه عدم الاتفاق. ومما لا شك فيه أن المسيحي سيعرف أن المهندس الأعظم للكون هو الكيان المقدس». براهما الهندوس، والله المسلمين، الذي يصلون له في قلوبهم كذلك.

ولكن في هذا المفهوم المفترض أنه الحد الأدنى والمستوى المشترك عن الله، يوجد هناك صعوبات هائلة، فالأسماء والألقاب المعطاة للآلهة المأخوذة بصورة مسلم بها من قبل الأخوية الماسونية، في عدم إعطائها الاحترام والتوقير الكافيين، لا يبدو أنها قابلة للتحقيق. فإن تطلق على «الله» كما هو في الدرجة الأولى، اسم «الباني العظيم» أو البناء العظيم. هو حط من شأن الخالق ذي القوة الكلية، حيث إن البنّاء يقوم فقط بالتجميع من مواد جاهزة من السابق وموجودة تحت تصرفه وفي متناول يده. إنه يصمم ولكنه لا يخلق، كما أن هذا المفهوم بكل صراحة «ربوبي» (الإيمان بوجود رب مع عدم الإيمان بالديانات) بل حتى أن تعبير «المهندس «العظيم» أو المهندس الأعظم، غير كاف بصورة أكثر هولاً ورعباً، كما أن فيه آثار من الرياضيات الرمزية القديمة المهجورة التي كانت موجودة في القبلانية (فلسفة تفسر الكتاب المقدس تفسيراً صوفياً). أما تعبير «المشرف العظيم» في الدرجة الجانبية المعروفة باسم ماسونية العلامات فيمكن التسامح معها إذا كانت تشير إلى «الذي يرى كل شيء (والتي تستخدم بلا شك كرمز ماسوني) إلا أنه في متن هذا الكتاب تظهر أكثر قرباً لأن تكون نموذجاً مقدساً أو إلهياً لكلمة مشرف أو مراقب عمال تحت إمرة بناء أو مقاول.

إن كافة هذه الألقاب والأوصاف قد يسمح بها كصفات وخصائص «لله»، ولكن حقيقة أن الله يشار إليه بصورة رسمية وفقط تحت هذه الألقاب والنعوت في هذه الدرجات الماسونية، كل فيما يخصه، توحي بأن هذه الألقاب والأسماء

ما هي تحديدات أو تعريفات بدلاً من أن تكون خصائص ومميزات.

وعلى هذا فإن الدرجة الثالثة التي يطلق عليها «العليا» ليست استثناء إطلاقاً كما أنها معروفة ومألوفة لدى المسيحيين إلا أنه في القنطرة الملكية تظهر صعوبة في غاية الخطورة. حيث إن كلمة السر هنا ليست اسماً توراتياً، أو لافتة للنظر أو آسرة، وليست مجرد كلمة غير مفهومة أو لا معنى لها من اللغة العبرية الفاسدة، بل إنها من أصل يمكن التعرف عليه تماماً في لوحة معدنية في أعلى المذبح بأحرف في منتهى الوضوح، والمرتبطة كل الارتباط «بيهوه» لتكون «الاسم المقدس والسري الرمزي لله الحي العلي حقيقة».

وهذه الكلمة، والتي هي «يه. بول. أون. قد تم شرحها وتأويلها في المحاضرة الرمزية على أنها تتألف من ألقاب وأسماء وخصائص للآلهة لا يمكن لأي فرد أن يجد لها استثناء في اللغة الإنجليزية أو مغايراً لها، ومع أن هذه الكلمة مكونة (كما تم شرحها أيضاً) من كلمة «يهوه» العبرانية المقترنة بكلمة «بعل» الآشورية، لذلك فإنها تتعارض كلية مع «الأنبياء» حتى كرمز ومع «أون» أو «أوزيريس». ومهما تمت تلاوتها من قبل المراتب الثلاث التي تحمل أسماء زوير وبابل، وجوشوا، وحاجاي، مقطعاً فمقطع، فإن أصولها في العهد القديم كانت قد اهتزت وصدمت بصورة هائلة، ولقد كان المسؤول الماسوني العظيم، إلبرت بابك، القائد الأعظم للسلطة القضائية الجنوبية للمجلس الأعلى في تشارلستون، في الولايات المتحدة الأمريكية، كان في منتهى الحنق والغيظ والقلق بشأن إدخال هذه الكلمة، فقد كتب يقول: «لا يمكن لأي شخص أو مجموعة من الأشخاص أن تجعلني أقبل، على أنها كلمة هجينة، مؤلفة جزئياً من إله وثني حيواني ملقون، كان اسمه على مدى ما يزيد عن ألفي عام اسماً ولقباً للشيطان». كذلك فإن الحقيقة القائلة بأن الأساقفة الإنجيليكانيين ورجال الدين يرون أنه لا يوجد هناك ما يتعارض مع المنطق القيام بتشكيل مجموعات من ثلاثة أشخاص لتلاوة هذه الكلمة على أنها تعويذة، إلا أن هذه الفكرة ترنحت وانهارت، مما لا ريب فيه أنهم سيقولون بأن الأمر كله ما هو إلا شيء

رمزي، إلا أن بابك اعترض عليها حتى ولو كانت رمزاً، كما أنهم بلا شك سيقولون إنهم لم يأخذوا الأمر الذي يوحي بالإمكانية التعسة لقسم آخر مقدس «لعقيدة خاطئة غريبة مطروحة» قد لا يؤخذ كذلك على محمل الجد، على الأقل فيما يتعلق بمبدأ سري، ولكن سنجد المزيد من التفاصيل في الفصل التالي.

ومرة ثانية فإننا نجد الادعاء بأن الآلهة الماسونية هي مستوى مشترك تنهار عندما تتم الإشارة إلى «الأنوار العظمى» لهذه الدرجة ويتم شرحها وبيانها، والتي هي قوى الآلهة الخلاقة، والحافظة، والمبيدة المهلكة. وينطبق هذا تمام الانطباق على الثالوث الهندوسي لبراهما، وفيشنو، وشيفا، وإنه ليس فقط لغير المسيحيين بل إنه غير مسيحي إطلاقاً.

ومما لا شك فيه أن الادعاء القائل بأن الأعمال الماسونية ينبغي أن تعتبر طقوساً وشعائر دينية بل يجب اعتبارها أخلاقاً ذات طابع دراماتيكي، إن هذا الادعاء ينهار تماماً في هذه الدرجة. فهناك كمية هائلة من المواعظ الأخلاقية إلا أن التناقض بين الأخوية الماسونية والقنطرة الملكية تناقض صارخ وبارز. ففي الأولى ـ الأخوية ـ نجد أن الإشارات (بصرف النظر عن الإشارات الجزائية) «عرضية» ومرتبطة بحوادث معينة في الأساطير الماسونية، فقد أعلنت الكلمات ولكنها ثانوية وعرضية تماماً بالنسبة للدراما وليس لها أية أهمية دينية. بينما القنطرة الملكية، من الناحية الأخرى مهتمة كلية تقريباً بالبحث عن واكتشاف «الكلمة» المفقودة وتلك الكلمة هي اسم وثني وتوفيقية لكلمة «الله» الموجودة في المعتقدات الدينية المختلفة وقد تم شرح إشارات القنطرة الملكية بصورة تامة شاملة في «المحاضرة الرمزية» كإشارات دينية، تمثل علاقة الإنسان «بالخالق». والاسم التام الكامل لهذه الدرجة هو القنطرة الملكية المقدسة والأبنية الفرعية للمحفل تقيم مذابحها (مثل مذبح الكنيسة) فيها. أما المسؤولون فيمثلون الوظائف التي يؤديها «النبي والكاهن والملك» كما أنها تعطى على أنها كلماتهم السرية.

خاصة بهم للأسماء الثلاثة الواردة في العهد القديم من عند الله ـ فجوة

ترمز إلى الملك يروبابيل، والشاداي للنبي حاجاي والإيلوه لجوشوا. وبالرغم من أن هذه العادة تميل إلى الإخفاء والزوال، إلا أنه يوجد هناك نصوص خاصة بمراسم غسل الأرجل لدى نصيب جوشوا، وله ولزيرو بابيل يتم المسح بالزيت والتقديس به، كما أن استخدام البخور ليس مجهولاً في المراسم والاحتفالات المقدسة في القنطرة الملكية. وكافة هذه الأشياء، بأي اسم معترف به، هي دينية أكثر منها رموز أخلاقية كما أن هذه الدرجة تعني حقيقة أنها تعلمنا عن طبيعة الله.

ولذلك فإن من المستحيل تماماً القول بأن «الماسونية لا علاقة لها باللاهوت» بينما النصف الثاني من المحاضرة الرمزية التي تتناول المذبح الأعلى (يهوه، وجاهبول أون، وثالوث بعل الذي حول بالعبرية إلى أليف، بيث، ولاميد) ما هي إلا تعبير لاهوتي صرف عن طبيعة خصائص الآلهة الماسونية.

فالعبارة اللاتينية «يا سكان العالم إننا نحن الذين أوجدنا عبادة الله» شعار يظهر على كل جوهرة قنطرية ملكية، كما تمت ترجمتها في محاضرة الجوهرة بالصيغة الواردة أعلاه. وقد تستحق هذه الترجمة عقوبة الضرب إذا قام بها أي طالب في الصف الرابع ابتدائي، إلا أنها ترجمتهم ويجب قبولها، ولكن، ومرة ثانية، فإن معانيها ومراميها الخاصة بالمستوى العام للنظرية القائلة بأن الماسونية ليست لاهوتية، ما هي إلا كارثة بالنسبة للماسوني المسيحي، فالمؤمن بإله غامض أصل الوجود وعلته عندما يتحول إلى المسيحية قد يهتف مبتهجاً بكلمات هذا الشعار، إلا أن من المحير كيف يتأتى لمؤمن بالثالوث المقدس أن يدعي أنه أوجد عبادة الله في الماسونية، بينما الإله الذي أوجد عبادته ما هو إلا إيمان في أدنى المستويات وإله استبعد المسيح مخلصه الإلهي المقدس ومنقذه، ومرة ثانية بإمكان المرء أن يدعي أنه لا يأخذ كل هذه الأشياء على محمل الجد، حيث إنه فيما لو أخذ مطالب المسيح على محمل الجد فإن من الصعب أن نعرف كيف كان باستطاعته أن يأخذ الماسونية على محمل الجد.

ولكن لو فرضنا أن هذه الصعوبات يمكن التغلب عليها (أو من المحتمل

بصورة أكثر تجاهلها) فإن السؤال يبقى فيما إذا كان هناك مثل ذلك الشيء الذي هو دين كامن وراء الديانات، والذي يتفق فيه كافة الأشخاص، وفيما إذا كان من المشروع للمسيحي الاشتراك مع المسلم في تقديم العبادة لإله مشترك لا يمت بصلة إطلاقاً إلى كلا الديانتين. التي يقوم كل منهما في قلبه بعبادة إله الخاص به. وهذه المسألة أساسية وجوهرية ولا يمكن لأية كمية من الفصاحة فيما يتعلق بالفوائد التي لا نزاع فيها في الاجتماع مع بعضهم من أجل نشر أعمال البر والخير والإحسان، أن يسمح لها بطمسها وجعلها غامضة. ففي هذه البلاد تظهر هذه المسألة لدى الممارسة والتطبيق بصورة نادرة، إلا أن الماسونية تقف بصورة عنيدة على أساس أن بالإمكان بل يجب أن يتم ذلك. وهناك الكثير من الإنجليكانيين لديهم ضمائر حساسة مرهفة إزاء الصلوات المشتركة مع غير المثبتين بالعماد على أساس أنه حيثما تعني الهيئات المختلفة أشياء مختلفة بواسطة ما يقولونه في عبادتهم، فإن تلك العبادة تصبح غير حقيقية ومع ذلك فإن الاختلافات بين الهيئات المسيحية المنفصلة تافهة بالمقارنة مع الاختلافات بين أولئك الذين يقبلون والذين لا يقبلون يسوع على أنه ابن الله وأنه شفيعهم ومخلصهم الوحيد. إن المسيحية ديانة قائمة بذاتها مقتصرة على أعضائها. وعلى هذا فإن تقديم العبادة لله في أشكال ترفض المسيح بقصد محدد وهو احتواء أولئك الناس الذين يرفضون المسيح، ما هو إلا عمل من أعمال الردة لا يمكن لأي مقدار من التحفظات العقلية أن تكفر عنه. والمجادلة بأنه كما كان هناك بلا أدنى شك شيئاً من الحقيقة في كافة الديانات فإن المسيحي يصبح في منتهى الحرية بصورة موقتة ليفرز ما يعرف أنه الحقيقة الواضحة الجلية من أجل النزول إلى مستوى ما قد يكون لدى غير المسيحيين من أشياء مشتركة معه، هذه الحجة أو المجادلة هي مرة ثانية ردة، مهما كانت دوافعها خيرة ومبنية على الأحسان.

إن الكنيسة لا تقر مبدأ العبادة على مستويات أو مبادىء أو مسميات مشتركة مع الديانات الأخرى. لذلك فإن المسيحي، الذي هو جزء من الكنيسة، ومع ذلك يدعي بأن لديه الحق في تقديم العبادة خارج الكنيسة بصورة محرمة

داخلها، إنما يتحدى بذلك سلطتها وصلاحيتها، والشيء الذي قد يكون أسوأ من ذلك، هو قيامه بذلك العمل بصورة سرية، لأنه لا يمكن أن يسمح بوجود عبادة خاصة بالكنيسة وأخرى خاصة بالهيكل إذا كان تناقض حيوي من ناحية المبدأ بين الاثنين.

إن الماسونية التي تمارس في الحق التبشيري تبين بوضوح وجلاء غرابة الوضع وشذوذه فبالرغم من أن البعثات التبشيرية المسيحية في هذه الأيام تعترف بما في الديانات غير المسيحية من مثل تلك العناصر كالتي تعكس الاعتراف بوجود الله ومشيئته الإلهية، إلا أن هذا يختلف اختلافاً عكسياً عن أولئك الأشخاص الذين أرسلوا للتحول والهداية، في جو يعتبر كافة الآلهة متساوين. فالمبشر ذو الإيمان القوي لا يقوم بهذا العمل شخصياً، ولكن الماسونية التي يقوم في محافلها بتأدية هذه العبادة ترفض أن تقر بوجود هذه الاختلافات والمميزات حيث أنها تقوم بكافة الوسائل والسبل بتركه يجتمع مع المهتدين المحتملين معه بصورة اجتماعية وتتيح له التعاون معهم بصورة ودية في كل مشروع أو عمل مشروع خاصة بأعمال البر والإحسان والرفاهية. إلا أن قيامه بالعبادة والصلاة معهم في هذا السياق يمكن فقط أن يضعف صفته وانتماءه المسيحي. ومرة ثانية إن السماح بذلك في الممارسة العملية يجعل هذا الوضع من النادر أن يظهر، لأن صميم الحقيقة القائلة بأن البشر عضو في أخوية تسمح وتشجع مثل هذا الوضع، من الصعب تفسيره وتأويله.

إن الخطاب التبشيري للقديس بول الذي وجهه إلى الأثينيين على جبل مارس، ربما لم يكن أنجح جهوده ومحاولاته ولكنه لو كان قد اجتمع ببعض أتباعه في وقت متأخر في ذلك اليوم في محفل أثينا الخاص بالعصور الغابرة وأدى صلواته معهم في تكريس وإجلال مشترك للباني العظيم الذي يمثل بصورة متساوية الأب المسيح الذي صلب و«الإله المجهول» والذين كان قد انتقدهم بقسوة في الصباح لتأديتهم العبادة والصلوات بصورة مليئة بالأوهام وانحرافات يعمها الجهل، فإنه سيكون موضعاً للتساؤل والشك فيما إذا كان أتباعه سيكونون

حتى أقل عدداً. ولكن على أية حال إن مما يوسع الخيار ويوصله إلى أقصاه، إدراك أن يصبح القديس بول، هو الأخ أو الرفيق بول، أو أن يصبح، ولنقل، أستاذاً جلاتانياً مبجلاً غير مهتد يدعمه اثنين من القيمين الكورنثيين غير المهتدين أو المتحولين، حتى ولو أن الأربعة جميعهم استطاعوا التعبير عن إيمان قوي مخلص «بالكيان الأعلى» غير متمكن ولا ضليع في العلوم المعمارية أو الهندسية. ويمكن قبول هذا الإيمان على أنه كاف للإدخال في العضوية من قبل المحفل العظيم في بريطانيا في هذه الأيام. إنه لوضع غير واقعي تصور «إيليجا» يسعى للحصول على صيغة سرية يمكن بواسطتها لأتباع «بعل» ويهوه أن يلتقيا في صلاة أخوية في الوقت الذي لا يوجد أحد يراقب صلاتهم وينظر إليها.

ومرة ثانية لو أن الماسونية كانت قد تمت ممارستها في كنيسة روما البدائية كما تمارس هذه الأيام، فإن الكثيرين جداً من الشهداء الذين لا ضرروة لهم والذين قدمتهم كنيسة إنجلترا كان قد تم توفيرهم وتجنب هلاكهم. حيث إن المسيحيين في تلك الأيام كانوا يفضلون مواجهة الموت بدلاً من ذر حبيبات من البخور في سبيل الامبراطور وغيره من الآلهة. ولكن لو أن إخوانهم الوثنيين من محفل روماثيو مابومبيليا طالبوا بحق زيارة محفل روما إيكليسيا، فإن الأخيرين سيكتشفون بلا ريب أن الباني العظيم للكون الذي يصلون له مع بعضهم في سلام وانسجام أخوي أن يكون مع نيرون وجوبتر على قدم المساواة وبصورة مشروعة كما هي الحال بالنسبة للثالوث الإلهي (الأقانيم الثلاثة) فلماذا إذن يحرم إلى درجة الموت ما يجري في الكولوسيوم خارج المحفل ما كان بلا شك وبصورة لا مناص منها مباحاً وحلالاً في الداخل.

وبالرغم من أن المسيحيين يدعون أن ماسونيتهم ليست ديناً ولكنها وصيفة أو خادمة أخلاقية خيرية للكنيسة، فإن الماسونية ذاتها لا تدعي في أي مكان أنها تحتل مثل هذا الوضع الثانوي التابع، ولدى قراءة الطقوس والشعائر فإننا سنجد أن الماسونية تمثل نفسها على أنها نظام كامل مكثف ذاتياً من الهداية الأخلاقية والروحية في الدنيا والآخرة فهي تعلم الفرد واجباته الكاملة تجاه الله والإنسان

وطريقة في التبرئة الإلهية التي بالسير عليها يصل الإنسان إلى الخلاص. إنها لا تنوه في أي مكان أو تعطي أية تلميحات بأن أي شيء زيادة على ذلك ضروري للحياة الدينية. صحيح أنها تحث على قراءة كتاب القانون المقدس، ولكن بما أن هذا الكتاب قد يكون أو لا يكون هو التوراة، فإن الاستنتاج سيكون بصورة واضحة أن القواعد الأخلاقية بدلاً من مبادىء وتعاليم أي كنيسة معينة أو دين معين ينبغي أن تكون هي الهدف. فإحدى هذه الوصايا (المرتبطة بسفر القوانين ولا توجد عادة في الطقوس والشعائر)، تعلن أنه مهما كانت الديانة التي ينتمي إليها شخص ما، فإن لن يمنع أو يحرم عليه الانتماء إلى المنظمة ما دام يؤمن بالباني المجيد، وإنه إذا كان لديه الإيمان بذلك فإن عليه تفوقه وتحيزه عن طريق سلوكه وأخلاقه.

وعلى أي حال فإن هذا لا يعني أنه يجب أن يكون منتمياً إلى أية ديانة أخرى، ولكن فقط إذا كانت له ديانة أخرى، فإنها لن تكون إطلاقاً مانعة له من أن يصبح ماسونياً. إن هناك كمية هائلة من التعليمات والوصايا الخاصة بالمدخل في العضوية أن يكون مواطناً مخلصاً ومطيعاً للقانون والذي هو ليس موضعاً للشك أو التساؤل أو النقاش أو النزاع. ولكن لا يوجد هناك ما يوحي بأن عليه أن يكون مخلصاً لأية كنيسة، التي قد تفسد انسجام وتناغم الأخوية. ففي منظمة تدعي بأنها «دينية» وأنها أوجدت عبادة الله، فإن هذا الاعتبار وحده قد يجعل المسيحي المقتنع يستغرق في التفكير قليلاً.

إن وجهة النظر الدينية للماسونية يتردد صداها بصورة قوية في «الربوبية» (الإيمان بالخالق مع عدم الإيمان بالأديان) التي انتشرت في القرن الثامن عشر في تأكيدها على نور الطبيعة على أنه الدليل والمرشد الأخلاقي، وفي بداية ونهاية تطلع الإنسان إلى الله وفي تبرئة الإنسان لنفسه في نظر الله عن طريق أعماله الصالحة الخيرة. وبالرغم من أن الماسونية أيضاً ترددَ صدى «الغنطوسية» (الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية) في ادعائها بأنها تمنح نوراً خفياً أي «فريداً» في نوعه فإنها تترفع (أو على الأقل تتجاهل) أي مفهوم، في أفضل

الحالات حيث تقول بأن «الماسونية يجب النظر إليها على أنها تجميع بشري وراء صميم الشيء الذي أقامه الله نفسه في الكنيسة المسيحية، فالماسونية تعلم الكثير فيما يتعلق بالاستقامة الأخلاقية ولكنها لا تكاد تذكر شيئاً عن الذنب أو التوبة. إنها ديانة الاستقامة التامة والاحترام المطلق للنجاة والخلاص عن طريق الأعمال، وليس عن طريق القداسة والورع والتواضع أو الاتضاع. ولعل ذلك هو السبب في أن الامبراطورية البريطانية وأمريكا قد أنتجتا أضعاف أضعاف الماسونيين الموجودين في كافة أنحاء العالم كله.

قد لا يحاول أي ماسوني إنكار أن أعماله قد تفرعت وانبثقت من الوثنية، وصوفية وباطنية ما قبل المسيحية، ومن بعض العناصر المأخوذة من الديانات غير المسيحية، لكنه سيحاجج، بالقول بأنه ما دامت هذه الأشياء بحد ذاتها ليست شذوذاً أو استثناء أخلاقيا، فأين الضرر في ذلك؟ أليست الكنيسة أيضاً مليئة بالعادات والمراسم الوثنية، أليس عيد الفصح احتفالاً متوارثاً من الأزمنة الغابرة بالحياة الجديدة في التقدير والاحترام والإجلال لأم الله. ما هو إلا صدى للأم العظيمة لروما الامبراطورية ذات الجلال والإكرام؟ ألا يوجد في ديانات أخرى، لمخلص ومنقذ، نصف آلهة مثل مريم.

كذلك فإنه سوف لا يحاول أي مسيحي مسؤول، بدوره، إنكار إمكانية وجود قاعدة تحتية من الحقيقة في هذه التأكيدات، كما أن عالم الديانات المقارنة قد يذهب إلى حد أبعد، ولكنه إذا كان مسيحياً مخولاً ومسؤولاً فإنه سيتحقق بأنه لا يوجد لديه أي عذر أو تبرير مهما كان نوعه.

إن المسيحية ديانة أوحى بها الله للإنسان، وليست نظاماً من صنع إنسان صعد إلى الله، فضل ذلك الوحي العلوي والنهائي الأسمى للكشف عن الحقيقة في تجسد سيدنا المسيح (الألوهية والناسوتية) فإن مما لا شك أنه يوجد هناك ملامح جزئية وظلال منها، بشرية محضة وليست من الوحي، ليست بحال من الأحوال مقصورة على الشعب اليهودي، وفي الحقيقة لقد كان هناك نماذج مناقضة لمنقذنا ومخلصنا في العالم الوثني، إن تلهف وتطلع الإنسان إلى الله،

وتطلعاته للوصول إلى الحقيقة، للإنسان الذي بالرغم من أنه مذنب وكثير الوقوع في المعاصي، إلا أنه كان قد خلق على صورة الله ومنح عقلاً وضميراً. ولكن التجسد هو الخلاص هو الوحي الأسمى والنهائي الذي تجد فيه النماذج والظلال نهايتها. وليست المسيحية هي الأسمى فقط ولكنها كاملة وتامة في وحيها وتنزيلها وأي نوع من الحقيقة، مهما كان جزئياً، فقد تم تخمينه واكتشافه من قبل العقل البشري من قبل وتم تثبيته واحتواؤه فيه. كذلك تم تبني الكثير من العادات والرموز والمراسم والاحتفالات القيمة. كما تم أيضاً رفض الكثير منها بكل قسوة وعنف لأن الله قد أرسل ابنه إلى العالم ليجعل الجنس البشري متلائماً ومنسجماً مع نفسه وليرشدهم بقيادة روح القدس، لمعرفة الحقيقة تامة غير منقوصة كما أنه لا يوجد هناك خلاص إلا باسمه.

سوف لا يكون هناك أي إنسان بلغ من ضيق الأفق والتمسك الأعمى بالعقيدة حداً يؤكد معه بأن أولئك الذين يحيون يموتون بدون يسوع هم محرومون من كل أمل في الخلاص، إذا عاشوا بموجب ما يمليه عليهم ذلك النور الموجود في أعماق إيمانهم، لأن ذلك سيغني أن يحدد رحمة الله الواسعة التي لا تحد والذي هو غير مقيد بقوانينه الخاصة ولكن الإنسان مقيد بها. ولكن إذا كان تجديفاً تحديد رحماته التي لا تحصى وغير المقيدة بمواثيق أو التزامات فإن من المفروض في الإنسان أن يأخذها على أنها قضايا مسلم بها.

وعلى أي حال، فإنه بالنسبة للمسيحي الذي يقبل هذا الوحي ويعترف بهذا الكشف، تكون عودته وارتداده إلى نماذج وظلال ما قبل المسيحية الخاصة بالنور الروحي والأخلاقي، والذي بفعل ذلك يكون قد تجاهل سيدنا وإلهنا يسوع كلية واستبعد كل ما ذكر عنه، بدخوله في نظام من العبادة والإصلاح الأخلاقي غير الموثوق والذي هو من صنع الإنسان، تكون عودته وارتداده عبارة عن إهانة وعدم اعتراف بالتجسد عن طريق تجاهله وبذهابه من وراء ظهر المسيح إلى ملة أخرى. إن أولئك الذين يقولون بأن الماسونية «مسيحية» في كل شيء ما عدا الاسم «أو حتى أنها منسجمة ومتلائمة مع المسيحية، لا يوجد لديه غالباً أية

فكرة أيضاً عن أن الإيمان بالمسيح يعني حقيقة شيئاً أكثر بكثير من مجرد مقياس معياري للسلوك المتواضع والأخلاق الحسنة. كما لا يبدو أنهم متحققين من أن كل ديانة أو عادة تستبعد المسيح عن قصد وسبق إصرار هي ديانة وثنية. وعلى هذا فإن رئيس الأساقفة ويليام يتمبل، في كتابه «الدين الشخصي وحياة الرفعة» كتب يقول: «إن الوثنية لا تتألف من الركوع الجسمي أمام تمثال أو صورة مادية، إنها تتكون من عبادة إله تحت أي مفهوم آخر غير ذلك المثبت أمامنا في الإنجيل. . . . إن الوثنية حقيقة شيء مهلك وعدو لدود».

إن رئيس الأساقفة يتمبل لم يكن ماسونياً في وقت من الأوقات إطلاقاً[1].

(١) إن كل المفاهيم التي حاول المؤلف الرد عليها لهي جديرة بالإهتمام لأن الماسونية ديانة جديدة تخالف كل الديانات، ولا بد من الإشارة بأن المؤلف في تقديسه للسيد المسيح عليه السلام يدل على إيمان كبير بالمسيحية ولكن الإسلام جاء ليعلن بأن السيد المسيح عليه السلام هو نبي كريم وهو أحد الأنبياء العظام وأمه قديسة وهذا هو اعتقاد كل مسلم، وكل مسلم لا يعتقد بنبوة السيد المسيح عليه السلام فهو كافر بالإسلام والقرآن لأن الإسلام هو دين لجميع الأنبياء بعقيدة الوحدانية لله الواحد الأحد.

(٥)

رجال الدين والأخوية الماسونية

«إن الفارس الأبيض ينزلق على المسعر. إنه يتوازن بصورة سيئة جداً»

لويس كارول ـ من خلال المنظار

بالإضافة إلى الاعتراضات اللاهوتية والأخلاقية على الطقوس وأنواع القسم التي سبق وإن أقيمت، فإن هناك اعتبارات أخرى تجعل الماسونية بصورة خاصة غير مناسبة وغير لائقة برجال الدين.

فهي من الناحية السطحية الخارجية على الأقل مفتقرة إلى الكرامة والشرف واللياقة، مما لا يليق بكاهن وخاصة بأسقف أن يمارسها، وعادة على أيدي أشخاص من غير رجال الدين أو التابعين للملة، والأنكى من ذلك الإذلال والمهانة المضحكة التي تمارس في إعداد المرشح للعضوية والمنتسب إلى الأخوية. حيث إن على الأسقف، باسم الباني العظيم أن يتجرد من خاتمه الأسقفي وصليبه الصدري (المعلق على صدره) مع كافة الأدوات المعدنية الأخرى، كما تعصب عيناه، كما يتم جعله يترنح ويتلعثم ويعرى جزئياً في بحثه عن نور ماسوني لا تعرف المسيحية في عنفوانها وكمالها أي شيء عنه إطلاقاً، إن هذا ما هو إلا عمل إذلال تقوم به مؤسسة بشرية صرفة والذي يبدو أنه لا يختلف فقط في الدرجة والمرتبة بل في النوع عن أي إنسان عادي من غير رجال

الدين يؤدي نفس الطقوس والمراسم، إن المرء لا يستطيع تصور أن يقوم رسول أو حواري بفعل ذلك. وأسقف، باعتباره من خلفاء الرسل والحواريين، لم يكن قد كرس حياته فقط لخدمة وصيانة الدين الرسولي والخلاص التمثل في المسيح وحده، بل هو نفسه، كعضو في الأسقفية التي هي أسس وجوهر الكنيسة. كما أن الكاهن أو القسيس هو الممثل في أبرشية الأسقف.

مما لا شك فيه أن رجال الدين يشاركون غير رجال الدين الحق في الاستمتاع بالألعاب المسلية التي لا ضرر فيها وكذلك التمثيليات التحزيرية المسلية في ألبسة تنكرية في ساعات فراغهم. إلا أن الأعمال الماسونية بكل تأكيد يوجد فيها الكثير والكثير جداً من الطقوس والشعائر الدينية المقدسة التي يمكن نبذها بكل يسر وسهولة.

لقد سبق وإن تم التأكيد على أن الخلاصية التوفيقية (التوفيق بين الأديان) للماسونية يتعذر الدفاع عنها في المجال التبشيري، ومع هذا فإن انجلترا، بمعنى من المعاني، هي أيضاً مجال تبشيري يفوق فيها عدم الإيمان ويزيد عليه. صحيح أن الإنجليكانية، لا تثير العداوة وتقوم بالرفض والشجب المباشر الممنوح في أوروبا لكنيسة روما، ولكن عدم المبالاة قد يكون خطراً أكثر إهلاكاً وإغواء ومكراً.

إن هناك الكثيرين وربما الأكثرية الساحقة من الجماعات ذات المستويات المعيشية المتواضعة خارج خدمات الكنيسة الكهنوتية لديهم إيمان معين بالوجود الأعلى، والذي، مهما كان غامضاً، يؤهلهم للدخول في الماسونية. ومع هذا لم يعد بالإمكان أن يطلق عليهم اسم مسيحيين (حتى ولو كان لديهم بعض الاحترام التقليدي لمنقذنا ومخلصنا يسوع كرجل صالح) مما يمكن أن يطلق على المسلم المرتد الذي يحيا حياة متواضعة وقد يعبر عن الاحترام لتعاليم المسيح.

والآن إن الدافع لكثير من رجال الدين إلى الالتحاق بسلك الأخوية الماسونية، غالباً ما يكون ذلك الدافع الجدير بالحمد والثناء ألا وهو السعي

للاختلاط بصورة أكثر قرباً مما قد يبدو ممكناً بطريقة أخرى، بالرجال من ذوي النفوذ والتأثير من غير رجال الدين والذين هم من السابق أعضاء في الكنيسة، وبأولئك الذين ليسوا أعضاء، على أمل هدايتهم وجلبهم إلى الحظيرة. وبما أن الدين قد لا يناقش داخل المحفل (بالرغم من أن القس من المحتمل أن لا يكون على علم بذلك لدى التحاقه) فإن من الواضح أن باستطاعته أن يفعل ذلك فقط عن طريق إقامة صداقات حميمة يتم اتباعها بعلاقات معنية في الخارج. وبصورة عابرة فإن بالإمكان أن نشير إلى (مهما كان حدوثها كثيراً في الممارسة العملية) أن ذلك يعتبر بصورة قوية سلوكاً غير ماسوني استخدام الماسونية للترويج لأهداف تجارية أو عملية، ولذلك فإنه قياساً على ذلك، سيبدو أن استخدامها حتى بصورة غير مباشرة كأداة للهداية إلى الدين يمكن أن تعتبر غير مرغوب فيها من قبل المحفل الأعظم كذلك.

ولكن هل هذا الحافز أو الدافع مرغوب فيه حقيقة أو شرعاً من وجهة نظر الكنيسة قد يبرر قسيس زيادة فرعه المحلي للسعي وراء معرفة وإنقاذ المذنبين وغير المؤمنين هناك أيضا! قد يلتحق بأي ناد مشروع وقانوني حيث يشعر بأن تأثيره ملموساً، وأن نور المسيح قد انتشر ضياؤه. ولكن المحاججة بأن ذلك يوفر تبريراً للاجتماع في المحفل بأناس على مستوى ما قبل المسيحية كتبشير بالإنجيل، هي محاججة مميتة وزائفة على حد سواء.

وذلك لأن الانتساب إلى الماسونية والدخول في عضويتها ليس مجرد «اجتماع» بالناس على أي مستوى إطلاقاً. إنه الالتحاق بسلكهم ـ دمج المرء نفسه عن طريق قسم مقدس مهيب بأولئك الأشخاص وباعتقاداتهم البديلة للمسيحية. إنه صلاة معهم في صلوات وأدعية استبعدت سيدنا المسيح عن قصد وبصورة متعمدة. بل وحتى لو اعتبر حداً أدنى وليس أقصى من الدين أو العقيدة (كما ينبغي أن يكون الماسوني المسيحي الالتحاق بمثل هذا النظام الذي لا يدعي في أي مكان بأنه حد أدنى من العقيدة، قد يبدو بصورة جلية أنه يقرها على أنها عقيدة تامة وكافية.

إن المحاججة بأنه يحل بل ومن المشروع الاجتماع بأناس على مستوى يمهد للمسيحية أو موجود قبلها سيظهر على أنه يبرر لقسيس مسيحي أن تجري عليه عملية جراحية خفيفة وأن يصبح يهودياً لأمسية واحدة كل شهر من أجل أن يحول الجنس كله إلى المسيحية ويهديهم إلى سراطها المستقيم. صحيح أن اليهودية ترفض المسيح، بينما تقوم الماسونية بتجاهله، ولكن النتيجة هي أنهما غير مسيحيتين على قدم المساواة.

ولكن بالرغم من أن الماسونية تمثل من بعض النواحي ديناً على مستوى ما قبل المسيحية، فإنها تدعي أيضاً أنها تنقل نوراً روحياً وأخلاقياً، لا يشع في أي مكان آخر فإنها تدعي أن لديها أسراراً توصل إلى إحساس الإنسان بالقيم الروحية كما تحسن إطلاقه وسلوكه. إنها تدعي بأنها تملك بعض الحقائق المقصورة عليها فقط، إحداها الاسم المقدس والرمزي الباطني لله. كما تدعي أنها هي التي أوجدت عبادة الله.

وعلى هذا فإن المسيحي العادي الذي يعرف أنه كاهنه وقسيسه ماسوني، قد يكون تبعاً لذلك على حق في الشك فيما إذا كان ذلك الوحي وتعاليمه الذي من على المنابر هو بعد كل شيء كامل وتام. إذا وجد راعيه أن من الملائم والمناسب أن يكمله برموز خفية لا يمكن الحصول عليها إلا من المحفل.

وفوق هذا كله، فإنه يوجد الآن عدوان لدودان مميتان مهلكان للنزعة الغوطبيعية الإلهية للكنيسة، أحد هذين العدوين النزعة البشرية. والآخر هو الشعبية المتزايدة للإيمان الزائف بالقوى الخفية الغامضة وإمكانية إخضاعها لمشيئة الإنسان والتي تجد تعبيراً في النزعة الروحية والصوفية، وغيرها من العقائد الأقل شعبية وقبولاً. إن الماسونية بشرية في طابعها وأسلوبها، ومع ذلك فإنها تحتوي في نفس الوقت على كمية هائلة من السخافات الخفية الصوفية الرمزية فيما يتعلق بالهندسة والفلك والتي لا يأخذها أي ماسوني متعلم في هذا العصر المستنير على محمل الجد، فهل يمكن لأسقف أو قسيس أن يؤيد ويشجع هذه النزعات، حتى في الوضع الاجتماعي والمحترم أخلاقياً، للمحفل

الماسوني، ويقوم في نفس الوقت بالمخاطرة بما قد يبدو ولاء مزدوجاً، (الازدواجية الدينية).

حيث إن هذه المخاطرة موجودة هناك، وحيث تبدو واضحة جلية عندما يجد الأسقف أن قسمه الأسقفي وقسمه الماسوني الملزم في تناقض، وعندما يأخذ القسم الثاني يحكم الظروف.

ومما لا شك فيه أن هذا اتهام خطير، كما أنني أطأ أرضاً حساسة دقيقة في إعطائه أهمية وتحويله إلى شيء ملموس، إلا أن المسألة في منتهى الأهمية. وباستطاعتي أن أتناولها بصورة أفضل لو كنت أكتب بصورة شخصية.

فقد فاتحني أخ قسيس منذ سنوات في أن أصبح أخاً ماسونياً، وقد أبقى على نفسه ضمن القانون عن طريق عدم سؤالي بصورة صريحة، ولكنه أشار إلى أنه سيكون عملاً في منتهى الجودة لو قبلت ذلك، وأنه سيكون في منتهى السعادة لاقتراح اسمي والتوصية به، إلا أن الفكرة وصلت إلى نفس النتيجة، فقد أجبته بأنني أكره غاية الكره وأرفض أشد الرفض الالتحاق بأية منظمة لا يسمح لي بمعرفة أي شيء عنها سلفاً، الأمر الذي أجاب عليه لو أن كل واحد شعر بهذا الشعور وتبنى هذا الرأي، لما كان هناك ماسونيون على الإطلاق، لأنه ليس باستطاعة أي فرد خارج الأخوية الماسونية أن يكتشف أسرارها، وأن ما كان خيراً وصالحاً بما فيه الكفاية للأساقفة الذين أصبحوا ماسونيين ينبغي أي يكون صالحاً بما فيه الكفاية بالنسبة لي.

وكان هذا الجواب هو الذي جلب اهتمامي في الموضوع برمته، وقد تذكرت عضواً في البرلمان كان قد أخبرني (بعد وقت طويل تلك المفاتحة التي يمكن أن تكون طيشاً وعدم حكمة) بأنه حتى في الجلسات السرية لمجلس العموم أثناء الحرب كان يعتبر من الخطورة بمكان كشف الأسرار البالغة السرية المتعلقة بالسياسة والاستراتيجية حتى لحوالي ستمائة عضو من أعضاء البرلمان الموثوقين وأن هذه الأسرار في وجه العموم كانت في بعض الأحيان تناقش على

أنها فقط شحنات ونقائص وعيوب في الدبابات. فهل من المحتمل أو حتى من الممكن لمنظمة تضم في عضويتها حوالي خمسة ملايين شخص، ومما لا شك فيهم الصالحين والطالحين وغير المبالين، والتي مضى عليها في الوجود ما يزيد على قرنين أن تبقى حقيقة بقية العالم في جهل تام بأسرارها؟ وعلى هذا فقد خدعت وأخذت في البحث والتقصي.

ولقد فوجئت لدى رؤيتي الوسيلة التي يمكن بواسطتها التنقيب والكشف عن المعلومات بالطرق التي شرحتها في الفصل الأول ـ ومع ذلك فقد بقيت قلقاً بصورة متزايدة حول طبيعة تلك المعلومات. وعلى هذا فقد كتبت إلى أسقف ماسوني كنت قد التقيت به مرة، طارحاً بين يديه بعض تلك التعقيدات والنقاط المحيرة، ذاكر الاستنتاج الذي توصلت إليه من أن «بعل» هو الاسم السري لله في القنطرة الملكية، كما أوضحت له بأنني كنت أسأله من أجل إرشادي كأسقف في مسألة تتعلق بالدين والأخلاق.

وقد تم تلقي الجواب بدهشة مشربة بالسخف حيث اكتشفت ما يعتقد بأنه أسرار بدلاً من تخفيف الشكوك والريب الموجودة لدي. فقد قال بكل لطف ومجادلة بأنني إذا كنت لا أحب الماسونية من الأفضل أن لا ألتحق بها. ولكنه لم يكن مسموحاً له ولا يحل له مناقشة هذه الأشياء مع من لم يكن ماسونياً. وعلى هذا فقط كتبت له كرد على جوابه بأنني كنت مرتاعاً إزاء ما كانت ترمي إليه ملاحظاته، فقد رأيت لأول وهلة (ولم أعد لذلك ثانية) أن الأخوية الماسونية لا تنسجم ولا تتفق مع المسيحية، وإنني تبعاً لذلك لجأت إلى أسقف ليهديني سواء السبيل، وكان جوابه أنه كان ملتزماً بقسم بأن لا يفند أو حتى يناقش مثل هذه المسائل، مع أي شخص لم يكن مرتبطاً بقسم مماثل بكتمان السر الأمر الذي يعني بكل وضوح وجلاء أن القسم الماسوني اتخذ الأولوية على قسمه الأسقفي في أن يبعد (المبدأ الغريب الخاطىء، إلا أنه لم يكن هناك جواب، وخرج بالصمت عن لا ونعم.

كذلك فإنه أساقفة آخرين ممن كتبت لهم، كانوا إما متملصين مواربين

مثله، أو أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء النظر في رسائلي أو التعرف عليها. إن «الصمت المبجل» هي العبارة التي لها الخطوة لدى الماسونيين. والاستثناء الوحيد الممتع، الذي سأبقى ممتناً له أبداً، فقد دعاني إلى منزله وسمعني إلى آخر كلامي بصبر وأناة وإحسان مسيحي حقيقي. ولكنه كان مثلهم غير قادر على الإجابة على اعتراضاتي.

إن أسئلتي إلى هؤلاء الأساقفة لم تكن إطلاقاً معنية بالتعريفات الخاصة بتعاليم الكنيسة وقواعدها، إلا أنها كانت مهتمة بتعاليم هيئة تدعي أنها تقدم العبادة لنفس الإله الذي تعبده الكنيسة والتي تتداخل مع الكنيسة ـ وكان هؤلاء الأساقفة ضمن تلك التداخلات، لا يمكن أن يتوقع من أي أسقف أن يكون العالم بكل شيء حتى في المسائل المتعلقة بالله، فلو أنني سألت أسئلة عويصة غامضة عن مجيء المسيح إلى العالم ثانية فإن كل أسقف يحق له أن يقول لا أدري وإنه ليس موضوعه وإذا اعتقد أن السؤال كان تافهاً وبليداً فإن باستطاعته الإجابة. بعبارة أنجلوسكسونية مقتضبة، كما أنه سوف لا يكون لدي أي سبب يدعوني للتذمر. ولكن هؤلاء الأساقفة رفضوا الإجابة على أسئلة حول اسم وطبيعة الله الذي يعبدونه كماسونيين، حتى بالرغم من أنهم بلا شك سيدعون أنه نفس الله الذي يعبدونه ويصلون له كأساقفة. مما لا شك فيه أنها الأجوبة الخاصة بأسئلتي الجدية والمعقولة تماماً، إلا أنهم كانوا مرتبطين بقسم بأن لا يجيبوا عليها لأي مسيحي مكلفين من طرف العناية الإلهية بتعليمه وإرشاده وهدايته سواء السبيل، ما لم يكن أخاً ماسونياً أيضاً وملتزماً بقسم ماسوني بأن لا يفشي السر، وهو قسم غير معترف به من قبل الكنيسة. وهذا الأمر مقلق بصورة محزنة يرثى لها. مما لا شك فيه أنه لا ينبغي لأي أسقف أو رجل دين أن يعرض نفسه حتى لإمكانية أن يجد نفسه في ذلك الوضع المقيت والمريب عن طريق الالتحاق بجمعية أو هيئة لديها أسرار ذات طبيعة من هذا النوع.

يجب أن يكون هناك شيء واحد صحيح من اثنين. إما أن تكون مضامين أسئلتي خاطئة، وهي حالة أكون أنا نفسي واقع في الخطأ بإيماني بأشياء «غريبة

وخاطئة» فإذا كان هذا صحيحاً، فإن أولئك الأساقفة يكونون قد حنثوا بقسمهم برفضهم منعي من الخطأ حيث إن عبارات مقتضبة مثل كلمة «سخف» عندما تكون مقرونة بالعجز عن تفنيد الاستعداد الطبيعي والملكة العقلية، ليست مجرد تفنيد لما هو كائن، أو على الأقل تفنيد للبنية البديهية، التي تدرك لأول وهلة.

إن البديل هو أن مرامي أسئلتي كانت صحيحة جزئياً على الأقل، وحقيقة أنه لم يقم أحد حتى الآن بتفنيد القضية التي أثرتها كما أن بعض الماسونيين قد ذهبوا إلى حد الاستقالة من محافلهم وأخوياتهم تضامناً معي مما قوى ودعم قضيتي. وعلى هذا فإن قضية إنسان المبدأ الغريب الخاطىء غير المطلع والمنبوذ عندئذ أصبح في هذا السياق بالغ الدقة والحرج بحيث أصبح لزاماً علي أن أتركها إلى هذا الحد.

من المعروف والمقبول لدى الجميع هو أن على هؤلاء الأساقفة ورجال الدين الماسونيين أصبح من المحتم عليهم الدفاع عن أنفسهم وأيديهم مقيدة وراء ظهورهم. ومع ذلك، فإن هذا الأمر لا يكاد يعتبر وضعاً غير ملائم ولا عادل، وذلك لأن أصحاب النيافة رجال الدين قد قاموا بمحض إرادتهم وأمنهم واطمئنانهم وبصورة نهائية غير قابلة للنقض أو الإلغاء بتقييد أنفسهم هناك. ولكن هذا الموقف موقف مشرف لآبائنا في الله؟.

(٦)

المعضلة الكبرى

ألم تتوصل إلى حل اللغز بعد؟ قال ذلك بائع القبعات وقد التفت ثانية إلى إيليس. فردت إيليس غاضبة وقالت: «كلا، لقد تخليت عنها، فما هو الحل؟».

فقال صانع القبعات: «لا يوجد لدي فكرة مهما كانت طفيفة.

فقال مارتس هير: «ولا أنا».

من المحتمل أن الماسونيين سيعتبرون الأمر بأنني أقوم بإثارة كمية هائلة من الصخب والضجيج حول نواح معينة من طقوسهم الأمر الذي لم يخطر ببالهم إطلاقاً وبكل تأكيد، قد يوافقون على أن يقرأ من الطقوس فقط ما يتعلق بالتفسيرات والتأويلات التي قمت أنا (وكثير من الكتاب الماسونيون كذلك) ببحثها. ولكن بما أن معظم الماسونيين لا يؤولون هذا الأمر بهذه الطريقة، ولذلك فإن المستحيل حقيقة إثارة المسألة.

وقد يقولون أيضاً (وهذا الموضوع قد تمت مناقشته سابقاً) إن بعض العناصر الوثنية وفيما قبل المسيحية يمكن أن تقرأ في الطقوس والاستخدامات الخاصة بالكنيسة.

إلا أن تعاليم الكنيسة ملكية عامة تم إعلانها ونشرها بصراحة دون خوف أو وجل ووضعت أمام العالم أجمع. وكانت على مدى قرون موضعاً للفحص

والبحث والانتقاد والهجوم كما أخضعت بكل اختبار وفحص وتدقيق معروف لدى العالم والصديق والعدو. فرجال الدين الذين هم حماة وحراس الخفايا والرموز المسيحية قاموا بتدريب أنفسهم في البحث والمناقشة. كما أطلعوا أنفسهم على الاعتراضات الشائعة ضد العقيدة والأسرار المقدسة، وكتب الصلوات، وغيرها من المسائل التي ينبغي أن يكون لديه إجابات صافية وافية عليها. لأن يعرفون بأن هذه الأشياء قد صمدت لتجربة الزمان والانتقاد والبحث والتقصي.

أما الماسونية من الناحية الثانية، بالرغم من شجبها أحياناً فقد كانت تتمتع بحصانة نسبية ضد أي انتقاد حقيقي، أو بحث أو تمحيص من الخارج، ومما لا شك فيه أنها كانت تدعي أن هذه الحصانة التي تتمتع بها تكاد أن تكون حقاً إلهياً مقدساً وامتيازاً وهبته لها العناية الإلهية، حتى ولو أنه لا يوجد هناك أية هيئة تتمتع أو يحق لها أن تحلم بالمطالبة بمثل هذا الوضع. ومع هذا فإن الحصانة ضد أي نقد من الخارج تميل دائماً إلى أن يكون لديها تأثير موهن تجاه النقد الذاتي الذي يوجه إليها من الداخل، كما أن ذلك يشجع على الإحساس بالأمن الواثق. وبعد كل شيء فإن الإصلاح المعاكس لم يحدث إلا بعد أن قام بعض المسيحيين بالانطلاق من ربقة الكثلكة وقاموا بمهاجمة مساوئها.

لذلك، فإن الماسوني العادي في أمنه الحصين لم ير أية ضرورة لفحص أعماله بصورة نقدية أو تبريرها من وجهة النظر المسيحية للعالم الخارجي، إذ لماذا يكلف نفسه عناء اكتشاف الأجوبة على الأسئلة التي كان قد التزم مقسماً بعدم الإجابة عليها، والتي لا يهمه بحال من الأحوال كما أن من المحتمل أن لا تسأل إطلاقاً؟ وإذا أردنا الحديث بصورة عامة فإن الماسونية تستهوي الطبقات الأقل روحية من البورجوازية (لم أقل الأقل أخلاقاً أو الأقل احتراماً) فالضمير الماسوني (وما زلت أتحدث عن التعميمات) لا يجعل، حتى بين المخلصين من المسيحيين، لا يجعل بصورة غريزية من تلك النواحي من الأعمال التي تحط من شأن الوساطة العليا لسيدنا ومنقذنا، أية قيمة عن طريق تجاهلها أو توفير بدائل

عنها. فعلمهم التوراتي أو الكتابي (ومرة ثانية باستثناء ما يتحدى الشرح والتأويل) هو بطريقة تجعلهم إما أن لا يتحققوا كم هو بغيض وكريه لأنبياء الله وجود أي مزج أو خلط بين يهوه وبعل، أو تجعلهم يبدون وكأنهم يفكرون فيما إذا كان ذلك قابلاً للتحقق، ويبدو أنهم على جهل بأن التوفيقية (التوفيق بين الديانات والمعتقدات).، والديانة «الطبيعية» والديانة اللاتفريقية (الديانات متساوية ولا فرق بينها): هي الأعداء الألداء للكنيسة الممعنة في القدم التي أقامت الماسونية صداقات معها في هذه الأيام، فإذا كان من غير المنتظر من أي فرد من خارج الماسونية، فلماذا يزعموا أنفسهم ويكلفوها عناء البحث في ذلك؟ وبعد كل شيء فإن المبادىء العظيمة «الحب الأخوي، والإحسان، والحقيقة» (تلك المبادىء التي تؤمن بها الكنيسة وترفع من شأنها، ولكن بصورة أقل إسرافاً وابتهاجاً بها) وهل يهم في أي مرتبة يمكن لهذه المبادىء العادية وغير الاستثنائية أن توضع وتعلن ويرفع من شأنها؟.

يبدو أن أولئك الذين يعلنون بأن هذا الشرح والتأويل للماسونية مناف للطبيعة والعقل، ولا يمس الحقيقة والواقع إطلاقاً، يفعلون ذلك، ليس بدافع من المعرفة الداخلية التي تأتي عن طريق البحث والتمحيص والنقد، بل تأتي من جهلهم بهذه الأشياء من ميلهم إلى أخذ المسألة على أنها مسلم بها ولا تحتاج إلى نقد.

ومع هذا، فإن من المسلم به، أن التشابه يوحي بنفسه ففي أيام «حركة أكسفورد» ـ حركة إصلاح كنيسة بدأت في أكسفورد ـ عندما ظهرت النشرة المشهورة «اكس سي» قوبلت بغضب واحتقار وسخرية واتهامات بعدم الولاء والإخلاص من قبل عدد كبير من الأشخاص من ذوي الإيمان القوي الصحيح الذين كانوا بصورة تقليدية يأخذون كقضية مسلم بها بأن البنود التسعة والثلاثين كانت حصناً حصيناً للبروتستنطية في كنيسة إنجلترا. ومع هذا فإن الفرضية والفكرة الرئيسية في وثيقة حركة أكسفورد، في هذه الأيام والقائلة بأن البنود الآنفة الذكر قابلة للتأويل «الكاثوليكي» وأنه تمت صياغتها بتلك الطريقة كنوع من

التوفيق والمهادنة لتكون مقبولة عموماً من قبل اللاهوتيين الإنجليكان ومؤرخي الكنيسة.

وسيكون هناك دائماً بروستانتينيين في غاية التعصب والذين يرفضون هذا الشرح والتأويل، ومن المحتمل أيضاً أنه سيكون هناك ماسونيون مستعدون للموت في سبيل الماسونية.

لا يمكن بصورة منطقية أن نتوقع من كل ماسوني، ولا حتى من كل ماسوني مسيحي أن يكون عالماً في اللاهوت، أو حتى متحققاً من أن أخويته الماسونية على خلاف مع الديانة المسيحية القائمة بذاتها والمقتصرة على نفسها. ومع هذا فإن مما لا شك فيه أن كل فرد قادر على التفكير السليم يجب أن يتحقق من أن الماسونية معضلة أخلاقية لا مناص منها وغير قابلة للحل.

فإذا ادعت الماسونية بأن لديها أسرار المعرفة التي سيستفيد منها كافة بني البشر في تمكين الإنسان من الوصول إلى حياة أسمى وأعلى أخلاقياً، فإن مجرد احتفاظ الماسونية بتلك المعرفة لنفسها فقط هو عمل لا أخلاقي.

وإذا لم يكن لدى الماسونية مثل هذه الأسرار فإنه ليس من الأخلاق في شيء أن تدعي أنها موجودة لديها وأنها في حوزتها.

وبعد كل شيء، لماذا ينبغي أن تكون أية معرفة عن الأخلاق وطبيعة أو اسم الله، سراً؟ إن محاضرة هيئة التتبع والمراقبة التابعة للدرجة الأولى من درجات الماسونية تحاول الإجابة على هذا السؤال، وهو جواب صحيح، إلا أن الجواب.. سيكون موضعاً للسخرية والاحتقار في القرن العشرين المستنير. ولهذا السبب فإن المحاضرة تشير ضمناً إلى أن تعاليم الماسونية قد احتفظ بها سراً لنفس السبب الذي جعل المعرفة العليا سراً وحيازتها المرتبطة بقسم قد أبقيت حكراً على الأقلية في مصر القديمة، وذلك لأن تلك المعرفة تمنح قوى وسلطات خفية قد يساء استخدامها إذا وضعت في أيد غير جديرة بها.

ولكن هل باستطاعة ماسونيينا الديموقراطيين والمستنيرين في هذه الأيام،

أن يفكروا في إعطاء جواب أفضل؟ إن طقوسهم لا توحي بأي شيء من هذا في أي مكان، بل إن من الصعوبة بمكان وحتى بعد القيام بأقصى أنواع التحريات المضنية أن نعتبر تلك الطقوس «مستنيرة» وكيفما كان أسلوب ترجمة أو تأويل بصورة رمزية تلك الأعمال الحمقاء والترهات بخفايا الماسونية ورموزها فإن من الواضح أن هذا الأمر سيبقى سراً غامضاً غير قابل للشرح أو التأويل، حتى للماسونيين.

(٧)

أخوية الإحسان والتسامح

«إنك تعرف نوع الأشياء التي يقولها الوزراء في حالات من هذا النوع إن قليلاً من التفاهات أو الملاحظات المبتذلة ستصلح لذلك. ففي حياتنا العصرية لا يوجد أي شيء ينتج تأثيراً مثل الملاحظات التافهة المبتذلة، إنها تجعل العالم كله أقرباء ومن عشيرة واحدة.

أوسكار وايلد ـ زوج مثالي

إن أول رد فعل للماسوني لدى سماعه انتقادات لاهوتية للأخوية الماسونية غالباً ما يبدو «كيف تجرؤ! ألم تتحقق من الخير الذي تفعله»؟

إن الجواب لا يمت للموضوع بصلة بصورة مذهلة. فالعصمة الباباوية لا تثبت بالأعمال غير الأنانية للفقراء القاطنين في الأحياء الفقيرة في باريس، ولاكريستولوجيا الموحدين (الإيمان بإله واحد وإنكار التثليث) غير الصحيحة التي يبرزها واقع الحال، في الحقيقة القائلة بأن كثيرين منهم يكتتبون بصورة أكثر كرماً للمستشفيات كما أنهم في منتهى اللطافة والبر لذوي رحمهم. إن الهندوس في منتهى الرفق بالبقر، الأمر الذي يعتبر من أسمى الفضائل.

ولكن دعنا نقر أن الماسونيين في منتهى الكرم، بصورة غالباً ما تجعل المسيحيين متخلفين وراءهم في هذا الميدان. فمجموعة جمع البر والإحسان

التي تطوف في الأعياد والاحتفالات ترجع بكمية من الأوراق النقدية وقطع النقود الفضية أكثر من معدل ما يجمع في صلاة المساء. ودعنا أيضاً نسلم ونعترف أن المؤسسات الماسونية ومستشفياتهم الخاصة بالمرضى الماسونيين، ودور حضانتهم، ومدارسهم الخاصة بأطفال الماسونيين، يتم إدارتها بصورة جيدة. وأن لديهم صندوقاً للبر والإحسان لفائدة الفقراء والبائسين من الماسونيين وأراملهم وأيتامهم. بالإضافة إلى هذه الجمعيات الخيرية الخاصة بالأخوية فقط، والتي يساوي نطاق عملها صناديق البر والإحسان والتأمين الخاصة بعديد من النقابات العمالية، وغيرها من المؤسسات الأخرى غير الماسونية، بالإضافة إلى هذه الجمعيات، الجمعيات الأخرى مثل هيئات إغاثة بوردمابور. . الخ كل هذه المؤسسات والجمعيات الخيرية تدعمها المحافل الماسونية بسخاء.

ومع ذلك، فإن الادعاء بأنه «لم تقم أية مؤسسة إطلاقاً بعمل أكثر من ذلك لإنقاذ وإغاثة الفقراء وعلاج المرضى»، هذا الادعاء من الواضح تماماً أنه لا يمكن الدفاع عنه إذا ما تمت مقارنة هذه المؤسسات الماسونية الخاصة بفائدة الماسونيين، والممتازة والتي هي فوق النقد كما هي حقيقة، إذا ما قورنت من الناحية العددية بتلك الأعداء الأكثر بكثير من المدارس والمستشفيات وملاجىء الأيتام التي تدعمها وترعاها كنيسة الله في كافة أرجاء العالم، أما إذا كان هذا الادعاء يعني النسبة أو المعدل، أي أن الماسوني العادي أو المتوسط يدفع أكثر من المسيحي العادي أو المتوسط، فمن المحتمل أن يكون هذا عذراً مقبولاً، ومما لا شك فيه أنهم يفخرون كل الفخر بهذا العمل. إلا أن الماسونيين يأتون بصورة رئيسية من القطاعات الميسورة من الأفراد الذين يستطيعون دفع ما لا قيمة له بالنسبة للامتيازات التي يتمتعون بها.

فإذا ما تمت مقارنة الحصص والنسب في الدفع، فإن البر والإحسان الماسوني لا ينطبق ولا يماثل الصدقة المسيحية المثالية، إنها ليست روح الأرملة التي تتبرع بفلسها الوحيد، بل روح الأشخاص الأغنياء (يسمون أنفسهم أبناء الأرملة) الذين يدفعون من فائض أموالهم وفضلات ثرواتهم.

والآن لا يوجد هناك أي شيء غير مسيحي في اليسار والوفرة والغنى، كما أن المسيح (في تلك الحالة) لم يدن الغنى ولم يحرم الوفرة واليسار. بل قال فقط إن الجانب الآخر أعز قلبه وأكثر قبولاً عند الله لأن الأرملة تدفع حتى يصيبها الضر.

إن الطقوس الماسونية، كحقيقة واقعة وبصورة جدية تحذر من هذه الأعمال الخيرية المسيحية المثالية. حيث إن قسم الدرجة الثالثة يلزم المرشح للدخول في الأخوية أن يعيش أخاً ماسونياً لدى الحاجة فقط «إلى حد يتم القيام به بدون إلحاق ضرر بنفسي أو بأقاربي وعشيرتي» تلك العبارة التي تتردد في مختلف المحاضرات والوصيات والتوجيهات.

فجوهرة طائفة المحبة التي قد يتم شراؤها لدى الممارسة العملية بعشرين جنيهاً وفترة من الإشراف والإدارة وتدبير شؤون الطائفة، ومزيد من السبائك الذهبية في مقابل عشر جنيهات بكل سبيكة، هذا العمل ما هو إلا من المبالغات الفريسية (نسبة للفريسيين في عهد يسوع) التي بلغت حداً من الإفراط جعلت الماسونيين من ذوي العقليات الروحية أنفسهم تساورهم الشكوك إزاءها وأن يوجهوا إليها انتقادات قاسيمة، ربما تكون المسألة برمتها عبارة عن فرك الملح غير الضروري في الجروح للخارجيين ليتمنوا لهم السعادة.

مما لا شك فيه أن أعظم النواحي الجذابة في الماسونية التي تسترعي اهتمام أتباعها والموالين لها ليس طقوسها وشعائرها أو مضامينها الدينية، ولا فوائدها وميزاتها المفترض وجودها في مختلف الشركات والأعمال وبعض الحرف والمهن، بل العضوية المحببة للصداقة المخلصة الأصلية والأخوة التي تتسم بهاالاجتماعات التي تتم في المحفل والإجراءات اللاحقة، التي ينبغي ممارستها من أجل أن يتم تقديرها والإعلاء من شأنها بصورة تامة وكاملة، حيث إن الماسونيين يقرون بصورة واضحة صريحة أنهم موجودون من أجل الهدف الممجد بصورة كاملة ومن قبل الجميع ألا وهو المتعة المتبادلة والمشتركة وكذلك المنفعة والفائدة المشتركة.

مما لا ريب فيه أنني لا أجد أحداً يحب أن يوجه أي انتقاد، مهما كان نوعه ضد هذا الأمر حيث يميل غير الماسونيين، يميلون إلى توجيه أنفسهم ليكونوا نموذجاً يحتذى للكنيسة في ادعائهم في أنهم حققوا الأخوة والحب المتبادل حيث فشلت الكنيسة في تحقيقه. فقد كتب نيافة سي. كي. هوجز. الذي شير إلى نفسه على أنه «قسيس وماسوني» كتب إلى صحيفة الجارديان (٢٣ فبراير ١٩٥١) يقول: «يجب على المراقبين في المجمع الكنسي الإنجيلي أن يسألوا أنفسهم، لماذا نجد الكثير جداً من عناصر الزمالة والولاء والإخلاص والأخوة والبر والإحسان وما شابه ذلك، والتي تميز كنيسة العهد الجديد مفقودة في كنيسة إنجلترا، بينما يعتقد بأنها موجودة في الماسونية؟ فإذا كانت الكنيسة المنظمة توفر ما توفره الماسونية، فسوف لا يكون هناك حاجة إلى الأخرى.

ويعني هذا الموقف أن الكنيسة والماسونية يمكن مقارنتهما على أسس متشابهة متماثلة، وأن الثانية قد نجحت حيث فشلت الأولى، أي أن مبدأ الزمالة والأخوة في الكنيسة قد تدنت إلى مستوى أدنى بكثير جداً عن المثل الأعلى الذي وضعه منقذنا ومخلصنا المقدس يسوع والذي لا يجحده إلا القليلون، لأن الكنيسة على الأرض تصارع في (وضد) عالم ساقط منحل أثيم شرير.

إلا أن زمالة المحفل قائمة على شيء ما مختلف كل الاختلاف عن زمالة الكنيسة بحيث لا يمكن المقارنة بينهما حقيقة. إنها مبنية على مبدأ المقصورية (أي الاقتصار على الجماعة وحدها) التي تجعلها ـ بالرغم من أنها أصيلة من ناحية ـ مع ذلك مصطنعة زائفة ومتكلفة مقتصرة عليهم، بل مكونة من أشخاص من خلفيات ومداخيل ومصالح متماثلة، فنجدهم في العديد من المحافل من نفس المهنة. كما أن المسائل الخلافية مثل الدين والسياسة محظورة خشية تعكير صفو الانسجام، فكل شخص عرف عنه أنه مشاكس وغير متجانس يمكن أن يصوت ضده ويمنع من العضوية. فإذا ما توفرت هذه الشروط، وعززت بغذاء وشراب جيد، فإن زمالة قلبية جيدة، والتي لا يتأتى حتى للأنخاب الطويلة الأمد والتافهة المبتذلة عادة أن تضعفها ليست صعبة التحقيق.

وعلى هذا فإن الزمالة الماسونية فوق النقد تماماً، عندما تعطي هذه الشروط قيمتها التي تستحقها، لأنه مما لا شك فيه أن الرجال (والنساء أيضاً) سيقومون بصورة طبيعية وصحيحة بالتجمع في النوادي والجمعيات التي يمكن فيها لأشخاص من ذوي المصالح والخلفيات والهوايات المتماثلة أن يجمعوا أنفسهم من أجل الربح والفائدة المشتركة والمتعة المتبادلة. ولكن إذا قارناها بزمالة الكنيسة الأوسع نطاقاً، فإنها مضللة بصورة متعمدة.

حيث إن يسوع لم يتألم ولم يمت على الصليب لفتح أبواب السماء، لم يفعل ذلك فقط لأصحاب الأعمال المحترمين، ومدراء البنوك، والأطباء والمحامين والضباط، والكهان والموظفين المدنيين. بل إنه مات من أجل المرأة والطفل أيضاً. لقد أراق دمه الغالي النفيس من أجل الأفاكين، والقوادين والبغايا. لقد عانى لذع السياط ليكفر عن خطايا البهيميين والقساة. لقد تحمل آلام العطش من أجل السكيرين والمخمورين، لقد تحمل عن طيبة قلب وصفاء نية كل إذلال من أجل آثام المتكبرين والذين يعتقدون في أنفسهم أنهم أكثر استقامة من الآخرين. لذلك فإن الكنيسة بدعوتها إلى التوبة وإلى تحقيق الأخوة الأوسع والأصح للإنسان الذي كفر عنها الدم الغالي الثمين، إنما تفتح ذراعيها للبشر كافة. إنه لا يوجد لديها حظر أو قائمة انتظار المعمودية، كما لا يوجد لديها حارس مشهر سيفه على أبوابها لإبعاد أولئك الذين قد يعكرون صفوها، لأن حياة المناضل من أجل الكنيسة في هذه الدنيا ليست حياة سلام ومتعة، بل حرب روحية ثابتة دائمة، صحيح أن لديها سلاح الحرمان، إلا أنها ترحب دائماً بالتائب، إنها لا تقدم على تحريم المجادلة والمحاججة داخل صفوفها، لأن من خلال النقاش والمجادلة يتم الوصول إلى الحقيقة.

من الطبيعي إذن، أن زمالتها والانتماء إليها في هذه الدنيا هو انتماء بشري هو خطأ محض وغير صحيح إطلاقاً. ولكن لها حقيقة إلهية كما أنها في غمرة كافة الأعاصير والمحن التي ألمت بها تقدم، ليس فقط البهجة والسعادة القلبية، بل البهجة الحقيقية الصحيحة الآتية من السلام الذي أغدقه الله على كل عاقل.

إذاً ما الذي تريد الماسونية تعليمه لها؟ ما هي الميزة الموجودة في موت حيرام أبيف الذي جاء في غير أوانه والتي يمكن أن يضيفها إلى آلام منقذها يسوع الفادي الذي يوحد المفتدي بالمفتدى؟

هناك فضيلة أخرى يدعي الماسونيون أنها تمتاز فيها على الكنيسة وهي التسامح. حيث إن إحدى الوصايا والتوجيهات القديمة تقول «دع ديانة أية إنسان أو أسلوب عبادته، تكن مهما كانت، إنه لا يستبعد من منظمتنا ما دام يؤمن بالباني العظيم للسماوات والأرضين ويمارس الواجبات المقدسة المتعلقة بالأخلاق». وعلى هذا فهم يقولون، لا يوجد هنا لا شجار أو خصومة حول الدين أو العقيدة ولا جدال يدور حول السياسة، بل مثال يحتذى للعالم عن كيفية تطبيق مبدأ عش ودع غيرك يعيش.

ومع هذا فإنه بالإضافة إلى عدم التسامح البالغ الحساسية للنقد الخارجي، فإن هناك استثناء في غاية الأهمية لهذا التسامح الكريم للمحفل العظيم، الكامن في موقفه إزاء الهيئات الماسونية الأخرى التي لا يعترف بها.

وتقع هذه الهيئات في مجموعتين. فأولاً، يوجد هناك ماسونيو ماركة الأستاذ، والدرجات العليا من الطقس القديم المقبول، وفرسان الهيكل، والمنظمة الملكية الإسكتلندية، والدرجات المتحالفة، وغيرها من الهيئات الماسونية الأخرى، والتي لا يوجد اعتراف رسمي بها، إلا أن العلاقات ودية، كما أن ماسونيي الأخوية غير ممنوعين من الالتحاق بها.

ويأتي في المجموعة الثانية مختلف الهيئات بما فيهم الموجهون العظام في أوروبا وبعض المجموعات المنشقة عنهم. مثل «النجم الشرقي» وغيرها من المجموعات التي تتبنى الماسونية أو الماسونية المشتركة. وهذه المجموعة الأخيرة هي التي تستحق الاهتمام.

إن السبب الذي أعطي للانشقاق عن الموجهين العظام هو أنهم تخلوا عن المعلم الأساسي القديم والجوهري ألا وهو الإيمان بالباني العظيم. وهذا أمر

واضح ومفهوم. ولكن يوجد في إنجلترا منظمة مفتوحة للنساء معروفة باسم «الأخوية المعظمة للماسونية القديمة» (المنبثقة من الماسونية التصوفية للسيدة آني بيزانت والتي يتبرؤون منها الآن ويجحدونها) التي تمارس بصورة دقيقة نفس طقوس المحاكاة السرية كماسونيين منتظمين، بنفس الإشارات والمصافحات والكلمات، ذات التعاليم الأخلاقية نفسها، ونفس الإيمان بالباني العظيم. من المعروف أنه ليس مهماً ولا قيمة له من الناحية العددية تعداد محافل الماسونية بالعشرات بينما المحفل العظيم يعد أعضاؤه بالآلاف. إلا أن المبدأ يبقى حيث إن المحفل العظيم سوف لا يقبل أيًّا منها كما يدعي أن له حق تأديب وطرد أي ماسوني منتظم يقوم بزيارة أي محفل يسمح للنساء بالدخول فيه كماسونيات. ويبدو عندئذ أنه سيتبع ذلك أن قصر النور الأخلاقي والروحي للماسونية على الرجال دون النساء مساو في أهمية للمعلم البارز للإيمان بالباني العظيم، لأن النساء اللواتي كن قد رأين نفس النور الماسوني وشاركن في نفس الأسرار والمبادىء العظيمة هن مع ذلك محتقرات مرفوضات على أنهن ماسونيات زائفات.

غالباً ما يُسأل لماذا ينبغي على كل فرد في الكنيسة أن يسعى للحصول على مقياس لإدانة أية جماعة من الأشخاص على أنها جماعة محترمة كريمة تخشى الله مثل الماسونيين بينما الإلحادية الصريحة للشيوعية تهدد بأخطارها ومتفشية في كل مكان. قد يكون باستطاعة المرء أن يجيب بأن بدعة أو هرطقة من الداخل يمكن أن تكون أكثر إهلاكاً من عدو مكشوف معروف من الخارج. ولكن على أية حال، هل للماسوني الحق في طرح ذلك السؤال إذا لم يكن هو قادراً على شرحه كما يوجد لدى المحفل العظيم مقياساً مماثلاً لإدانة أي هيئة محترمة كريمة تخشى الله مؤلفة من الماسونيات؟

مما لا شك فيه أن لكل منظمة الحق الصحيح والمناسب لفرض قوانينها ومبادئها وقواعدها على أعضائها. ولكن فقط من الناحية القانونية لكل منظمة الحق في أن تفاخر بتسامحها وعموميتها وشمولها.

(٨)

القرائـــن

قالت أليس: «إنني لا أدري ماذا تعني بكلمة «مجد».

فابتسم همبتي دمبتي بازدراء وقال: «بالطبع إنك لن تعرفي إلى أن أخبرك. أعني أن هناك مجادلة جميلة حاسمة بالنسبة لك».

فاعترضت أليس «ولكن كلمة مجد لا تعني مجادلة جميلة حاسمة».

قال همبتي دمبتي بلهجة أقرب إلى الاحتقار وقال: «عندما استخدم كلمة ما. فإنها تعني ما اخترت أن أعنيه بها ـ لا أكثر ولا أقل».

قالت أليس: «إن السؤال هو فيما إذا كان باستطاعتك صياغة كلمات تعني أشياء مختلفة».

فقال همبتي دمبتي: «إن السؤال هو من سيكون الأستاذ ـ هذا كل ما في الأمر.. مستغلق على الفهم! ذلك هو الذي أقوله.

فقالت أليس: وكانت في منتهى الارتباك والحيرة بحيث لم تجد أي تعليق «آه» وخرجت بالصمت عن لا ونعم.

لويس كارول ـ من خلال المنظار

يبدأ الماسوني عادة بالافتراض الذي غالباً ما يكون غير قابل للتحدي، إلا وهو أنه ليس باستطاعة الخارجي أن يعرف أي شيء عما يحدث في داخل المحفل. فلو تم دحض هذا الافتراض وتم الكشف عن كمية معينة من المعرفة (التي لا يمكن للماسوني تأكيدها أو نفيها) فإن باستطاعته فقط العودة إلى الحجة

القائلة بأن الطقوس لا يمكن فهمها أو تأويلها بصورة صحيحة خارج القرينة والجو الذي تمت صياغتها فيه.

إن للماسونيين الحق الذي لا مراء فيه لتفسير وتأويل طقوسهم بطريقتهم الخاصة بهم، أو بأية طريقة تعجبهم، ومع هذا، فإنهم إذا فسروها بمعنى ينتهك أو يجهد أو يتجاهل معناها الواضح الجلي فإن عبء ومسؤولية إثبات تفسيرهم وتأويلهم سيبدو أنه ملقى على عاتقهم. ولكن «القرينة والجو» هي الخندق الأخير الذي تتحصن فيه حجتهم والتي تبدو غير قابلة للإجابة عليها، وذلك لأن الخارجي لا يستطيع دحضها بمجرد القيام بزيارة سريعة متعجلة لمحفل ماسوني ليرى ويحس بنفسه ـ بالإضافة إلى تحطيم الباب هو استحالة تامة بأي شكل من الأشكال. فهناك قضايا وحالات تم تسجيلها. ولكن حالات وقضايا أخرى كثيرة لم تكتشف إطلاقاً. وهكذا يظهر أحياناً إهمال المحافل ولا مبالاتها، وخاصة في المناطق الرئيسية والعواصم.

ومع ذلك فسيكون مما لا جدوى فيه إنكار أن لهذه الحجة الخاصة بالقرينة قوتها الظاهرية السطحية، فبيان مطبوع، على سبيل المثال، يمكن في الغالب أن يعطي معنيين متميزين ومنفصلين أو أكثر حسب التشديد اللفظي على الكلمات التي يضعها الطابع بحروف مطبعية مائلة التي يكون غير قابل على نقل معناها بدقة. ومع ذلك فإن من الصعوبة بمكان القول بأن معنى الطقوس يمكن إساءة فهمه بصورة جدية وخطيرة أو إساءة تأويله بمثل هذه الطريقة.

ولعل مشابهة أفضل هي التي تحدث في الصلوات والعبادات التي تتم في كنيسة إنجلترا. إن شمول وعمومية هذه الهيئة معروف ومشهور، ولكن صحيح بصورة أكيدة لا ريب فيها أن قداس العشاء الرباني الوارد في سفر الصلوات المشتركة في أحد فصوله يمكن أن يتم أداؤه بما يقارب القداس الكاثوليكي مع التأكيد على الضحية والناحية الموضوعية، وفي مشهد آخر تتخذ معنى صلاة تذكارية بروتستنطينية أقرب إلى الذاتية.

ومرة ثانية فإن القراءة غير الكاثوليكية في الطبعة الرزينة القديمة تكون صلاة الرب يسوع متبوعة بعشر مرات «السلام عليك يا مريم» تتلى في تكرار تام متواصل، منتهية بالمجدة (المجد لله) وتعاد جميعها خمس مرات (فيما إذا كانت طبعت إطلاقاً) الأمر الذي يشعر بصورة مشروعة أن سلسلة الصلوات المتتابعة كانت عبارة عن شكل ممل مضجر للتقوى والورع المفرط وبالطبع قد يواصل الاعتقاد بذلك ما دام يسمعها تتلى على الملأ في الكنيسة، ومن الناحية الثانية فقد سمع في هذه القرينة وربما ضمن إطار «منح البركة» أو أمام القربان المقدم قد يؤخذ بروعة ورع جماعة المصلين الذين تعلو أصواتهم الهادرة بالصلوات والأدعية في موجات خفيفة لعرش ذي الجلال والإكرام. والتي يرى شيئاً من معناها الداخلي الباطني الذي لا يمكن لمجرد الكلمات المطبوعة أن تنقله.

وبدون الدخول في التعقيدات المتشابكة الترتيب الإليصاباتي (الملكة إيليصابات الأولى ملكة بريطانيا) الذي أعطى شكلاً لكتاب الصلوات العامة، فقد يكون من الأسلم بيان أن المهادنة والتوفيق المقصود كان قد تم التوصل إليه لجعل الكثير جداً من الأشخاص ذوي الآراء المتباينة سعداء بقدر المستطاع ضمن المؤسسة الإنجليكانية. فالزخارف وعناوين قواعد الخدمة الدينية وسننها المكتوبة بالحروف الحمراء والحروف السوداء التحتية كان لها مكانها، وإذا كان القرن العشرون قد فرق بين معنى العبادة في شارع مارجاريت وآيسلنجتون، أو بين شارع فرجينيا وقوند دولاك. فإنه لم يتم التنبؤ به ولكن مما لا شك فيه أنه يرحب به ويعتبر مقبولاً، ولكن تاريخ الطقوس الماسونية لا يقدم مثل هذا التفسير من أجل تبرير الاختلاف في التأويل الذي قدمه أولئك الماسونيون وغيرهم، ممن ينظرون إليها على أنها ديانة غامضة منفصلة ومستقلة وأولئك الذين كان ولاؤهم الأول للكنيسة والذين لا يرون وجود أي تناقض أو عدم انسجام في أن يكونوا ماسونيين كذلك. فإذا ما تمت متابعة التسلسل بين ماسونية أيامنا هذه، والنقابات المهنية في العصور الوسطى وبناتي الحجارة الكاثوليك (والموضوع موضع خلاف ونزاع مثل التسلسل والاستمرارية بين الإنجليكانية

وكنيسة العصور الوسطى) فيصبح من المعروف والمقبول أنه بعد إنشاء المحفل العظيم، فإن دستور أندرسون الذي وضع في عام ١٧٢٣ يستبعد بصورة تامة وكاملة كل إشارة محددة واضحة أو إيماءة أو تلميح إلى المسيح وكنيسته بطريقة لم يلغ فيها كتاب الصلوات نزعة العصور الوسطى بصورة تامة كاملة.

إن المقصد الواضح الجلي للأعمال الماسونية هو إيجاد نظام رمزي مجاري للبنية الأخلاقية والأخلاق المبنية على الطراز الوثني الذي لا يمكن التناقض معه، كما أن الكثير منه هو قاعدة الإيمان في أية ديانة محترمة، بالإضافة إلى أنه يقدم صلاة وعبادة إلى «الأعلى» الذي يمكن مساواته بأي إله. إلا أن تعابير وصياغة الطقوس وكل عمل احتفالي مراسمي يتم أداء هذه الطقوس بواسطتها يمكن إعادة صياغته وبنائه بكل تفصيل من قبل غير الماسونيين. لذلك فإن القرينة، الجو الروحي هو الذي يلتهم ويحيي ويقوي الأداء ولكن هل لهذا الجو أن يغير حقيقة المعنى الواضح للكلمات ومقاصدها.

وقد يعطي الاشتراك في التلاوة والترتيل العام المشترك للأدعية والأوراد والصلوات، قد يعطي هذه الكلمات معنى ويبعث الحياة فيما قد يبدو على الورق مجرد عظام نخرة. ولكنه لا يغير المعنى بحال من الأحوال. فكتيبات الأوراد وسلسلة الصلوات المتتالية تعلم المبتدىء بأنها ليست كلمات السلام عليك يا مريم هي المهمة ولكن التأملات في خفاياها ورموزها المختلفة التي تشكل مواكباً ومرافقاً لها هي المهمة، كما أن المشاركة في مثل هذه الأعمال من العبادة لا يمكن أن يؤدي إلى أكثر من إقناع المتسائل الباحث بأنه قد يكون مجرد تعبير عن شرعية وصحة وحقيقة ما يظن به إعادة مملة على وتيرة واحدة للكلمات. إلا أن البروتستنتي المقتنع بأن التوسل إلى القديسين والتضرع إليهم ما هو إلا عمل خاطىء وتعد على الله العلي الأعلى، سوف لا يرى فرقاً في المعنى في الأوراد والصلوات كما تمت تلاوتها وترتيلها يختلف عما وصفت به، وأشارت إليه. أما الكاثوليكي من الناحية الثانية فإنه سيكون في منتهى القلق إزاء قول أي شيء مهما بلغ من الضآلة حول الموضوع فيما إذا كانت الأوراد وسلسلة

الصلوات تتأمل في حياة المسيح مصحوبة بتكرار الابتهال والتضرع إلى بعل أو أوزيريس، ومع هذا فإن كاهنه حاول تبرير ذلك على أساس أن المهم هو قرينة التأمل وجوها، ولا يمكن فهم رواية ما، بل وفهمها بدقة عن طريق قراءتها واتباع توجيهات المسرح، حتى ولو أنه قد تدب فيها الحياة فقط بعد أدائها، ولكن معناها وأهميتها لا يتعيران مهما بلغت كمية الظلال والفروق الطفيفة التي أدخلت على تأويلاتها وشروحها.

يجب الإقرار بأن الصور التي تبدو سخيفة وتافهة في طباعتها الباردة التي لا حياة فيها، قد تحقق في قرينتها وجوها الصحيح الجلال والسمو والشرف لدى النطق بها على المسرح، إن الحساسية البالغة إزاء السخرية لدافع ثانوي قوي للمحافظة على الأسرار الماسونية، حيث إن نواح معينة من الأعمال، وأشكال إعداد المرشح للعضوية بصورة خاصة، هي عندما تقرأ على الورق، معرضة لذلك النوع من الهجوم، كذلك، وإلى درجة أقل طقوس الكنيسة بالرغم من أنها لا تحاول إخفاء أسرارها ورموزها لمثل هذا السبب. ولقد كان الماسونيون المتعلمون دائماً على علم تام بأن هناك سخافات وشذوذات وأبهات مصطنعة واضحة جلية في طقوسهم التي لا يمكن إلا أن تثير ضحك وسخرية المثقفين وذوي الإحساس والمنطقيين مهما بلغت من التبجيل والاحترام والتي يؤدونها مصحوبة على أنغام الموسيقى المقدسة المهيبة الصادرة عن الأخ العازف على الأورغون. إنها في هذه القرينة وهذا الجو قد تفقد شيئاً سن سخافتها الظاهرة. ولكن «كيف يمكن للأشخاص الكبار الناضجين سناً أن يكونوا على هذا المستوى من السذاجة والسخف»؟ أليست حجة لاهوتية صحيحة ما يلمس وبصورة واضحة أن ذلك السخف والسذاجة التافهة التي تؤدى للذات الإلهية المجيدة قد بلغت من السخف والسذاجة حد الحط من شأن جلالته العليا والانتقاص من رفعتها وسموها. إلا أن السخف نسبي وليس مطلقاً، كما أن أعاظم قديسي وعلماء اللاهوت البارزين في الكنيسة لم يكونوا دائماً يتمتعون بالحصانة والمناعة، ولا أولئك المنتظمين في خدمات خاصة مثل رجال

المطافىء ومحبي الحيوانات والرفق بها ولا بعض المصلحين المزيفين أو المبتدعين أو المجددين في الكنيسة الإنجليزية في هذه الأيام. وعلى هذا دعنا نبقي على ناحية النسبية.

إذن فإن الحجة الآتية من ناحية القرينة، هي بصورة أولية عاطفية وليست عقلية، فقد يكون هناك جو في بعض المحافل حيث كان المنتسبون قد حضروا إلى محفل التوجيهات والإرشادات وأدوا الطقوس بكل دقة وإجلال وإكبار وجمال، تفتقر إليه محافل أخرى حيث تم القيام بهذه الأعمال بكل إهمال ولا مبالاة ـ وينطق هذا على من يؤمون الكنائس. فكما هي الحال بالنسبة للاهوت الكنسي، فإن هذا الجو قد يعطي معنى وحياة لما هو عبارة عن أشكال وتوجيهات وسنن وقواعد مقدسة، إلا أن من الصعب معرفة كيف يمكن لذلك المعنى أو الحياة أن تكون مختلفة كل الاختلاف عن تلك الكامنة والتي تغط في سبات عميق في تلك الكلمات والأشكال.

فإذا ادعي بأن الأمر مختلف، فإن الماسونيين عندئذ يكونون مذنبين بقراءتهم في الطقوس أشياء ليست فيها أصلاً، أو لعل الشيء الأكثر احتمالاً هو أنهم تجاهلوا ذلك الشيء.

إذن ما الذي يعنيه الماسوني حقيقة عندما يقول بأنه «لا يمكن فهم الماسونية خارج المحفل». هل يعني أن الجو داخل المحفل مشحون بالمبادىء الأخلاقية السامية، والزمالة الصادقة والبر والإحسان والصداقة الحميمة. بحيث إن المرامي المعادية للكنيسة التي تتضمنها الطقوس الماسونية والتي لا تحمل عادة محمل الجد تهبط إلى أعماق التفاهة وتفقد أهميتها، فيما إذا تمت ملاحظتها إطلاقاً. إنها لحجة قد تبرر للمسيحي (مع البقاء مسيحياً في قلبه) أن يقدم قسماً يلتزم فيه طيلة حياته أن يكون كاهناً بوذياً كذلك وفي نفس الوقت. فالبوذيون كقاعدة في منتهى الود والكرم، حتى لو أنهم لا يميلون للتفاخر بذلك.

(٩)

جعجعة ولا أرى طحناً

لقد كان المستمعون إليها هادئين تماماً إلى أن وصلت إلى ذلك الجزء الذي تكرر فيه قولها. إنك مسن يا أب ويليام ولا تقوى على قيادة التراكتور، وأصبحت كافة الكلمات التي تنطق بها مختلفة، عندها قامت السلحفاة المجسمة بسحب نفس طويل وقالت:

«إن هذا لغي منتهى الغرابة».

فقال جريفون: «حقيقة أن الغرابة موجودة في كل مكان حولنا».

فصاحت إليس «بل أغرب وأغرب!».

لويس كارول ـ أليس في أرض العجائب

إن التفسير الديني الذي سبق لي أن وضعته عن الأعمال الماسونية سيتم بكل تأكيد رفضه والتبرؤ منه في فعل ذلك، ولكن ذلك الرفض سيكون مقنعاً إذا استطاعوا إنتاج بديل. فالتعابير مثل «محال، مناف للطبيعة والعقل» «بعيد جداً عن الهدف» سوف لا يفكر أي ماسوني في أن يقرأ في الطقوس ويرى فيها ما رأيته أو يفسرها كما فسرتها» أجوبة غير كافية بدون دحض وتفنيد حقيقي واقعي.

وقد قام كتاب ماسونيون متأملون وباطنيون وروحيون وصوفيون من أمثال ويليامز هارست، ووارد، وفورت نيوتون، والسيرجون كوكبارن وجمهرة أخرى

من المفكرين الآخرين، قاموا بتفسير الماسونية صراحة أو ضمناً على أنها عبادة رمزية خفية وديانة منفصلة مستقلة. وهم مؤهلون بصورة متساوية للقيام بذلك العمل، كما أن قراءة محايدة للطقوس وخاصة محاضرات هيئة المتابعة ستبدو وكأنها تبرر الرأي القائل بأن هذا التفسير لا يستجيب ولا يتلاءم مع الطقوس كما هي لدينا اليوم فقط، بل إنه يتلاءم وينسجم مع كل شيء نعرفه عن نزعات وميول العصر سمح بولادتها وولادة الروز كروشيه جمعية سرية تدعي أن لها معرفة سرية بالطبيعة والدين) والتي أثرت في الماسونية تأثيراً قوياً.

وعلى هذا فإن العديد من مؤلفات هؤلاء الكتاب وأمثالهم، وبعضهم من ذوي المراكز العالية في الماسونية، قد تمت إعادة طبعها وبدا أنها كانت تلاقي طلباً متزايداً وثابتاً. إن مثل هذه الكتب لم تثر عاصفة من السخط من جانب الماسونيين المسيحيين. ومع ذلك فإنه عندما يتجرأ خارجي على القول بما قاله هؤلاء الكتاب الماسونيون بالضبط أو وجدوا بأن تفسيرهم الديني للماسونية له ما يؤيده من وجهة النظر الماسونية، فإن سخف الماسونيين المسيحيين سيجن جنونه. أليس هذا عبارة عن سخف أسيء توجيهه؟ إن تماثل وتشابه الآراء الهرطقية داخل كنيسة إنجلترا لا أساس له من الصحة. فآراء الأسقف بارنز، على سبيل المثال، قد تم إنكارها والتنصل منها من رئيس أساقفة كانتربري الحالي باسم الكنيسة. وعلى أي حال، فإنني لا أدري فيما إذا كان نفس رئيس الأساقفة بصفته القسيس الأعظم السابق للأخوية الماسونية، قد سبق له أن رأى من المناسب أو من الحق إنكار آراء أولئك الذين يكتبون كتباً عن الماسونية كديانة. فويلمشورست، أكثرهم جميعاً وثنية ومعادية للمسيحية، تم منحه منصباً محفلياً إقليمياً عظيماً من قبل إيرل هاروود الراحل مكافأة له على خدماته للماسونية ـ وتتألف هذه الخدمات بصورة رئيسية من محاضرات في المحافل الماسونية حول صميم الموضوع كذلك فإن منظمة معروفة باسم «دائرة دراسات دورمير» لا تزال موجودة وقائمة لتخليد آرائه.

إذن، فالجواب على السؤال فيما إذا كانت الماسونية أو لم تكن ديناً ينبغي

(بالمصطلحات اللاهوتية) أن يعتبر «فكرة ورعة» وليست ديناً أو إيماناً. و«قولي بأن الماسونية ليست ديناً» يذهب إلى الحد المباح لكل ماسوني. كما أن المحفل الأعظم نفسه لا يمكنه إصدار أي بيان رسمي بهذا المعنى بكل إخلاص وأمانة وصدق ما لم يتم إصلاح الطقوس إصلاحاً شاملاً وبصورة صارمة، خاصة «القنطرة الملكية المقدسة». حيث إن صميم الحقيقة القائلة بأن الطقوس قابلة لمثل هذا التفسير، تبين أن في الماسونية نفسها على الأقل جرائيم ديانة منفصلة مستقلة، وهذه حقيقة تبرر القيام بإجراء بحث وتمحيص من قبل الكنيسة.

فإلى حد ما وصل إليه علمي، لا يوجد هناك تعليق ماسوني واحد موجه بصورة رئيسية إلى المسيحيين الذين يحاولون التوفيق بين الماسونية وبين قواعد الإيمان الذي تؤمن بها الكنيسة. وغالباً ما تذكر الكنيسة بما فيه الكفاية، كما أقيمت التشابهات والمماثلات، على سبيل المثال، بين التعميد والإدخال في العضوية الماسونية، ولكن مع الإيحاء دائماً بأن الماسونية تضيف شيئاً ما من الحقيقة السرية المقدسة الموضوعية لتجربة الإنسان الروحية التي لا يمكن الحصول عليها في الكنيسة. أو التي يمكن الحصول عليها على الأقل في المحفل الماسوني إضافة إلى ذلك. وهذا المفهوم بغيض مقيت لذلك المسيحي المقتنع الذي يعتقد بأن روح القدس يقود الكنيسة إلى الحقيقة الكلية. وإنه في الكنيسة وحدها توجد الروحية الكاملة.

إذاً، كيف يمكن للمسيحيين تفسير وتأويل الطقوس والشعائر الماسونية؟ فبتحققهم من أن النص الحرفي نفسه للطقوس خاصة القنطرة الملكية المقدسة ضدهم بصورة مطلقة، سيكون بإمكانهم فقط العودة إلى التأكيد على أنهم لا يحملون طقوسهم محمل الجد. إنها نوع من الرواية الأخلاقية أو مسرحية إيمائية لعيد الميلاد. فإذا كانت الأخلاق سليمة، فلماذا الانزعاج تجاه الرواية؟.

ومع أن هذا الجواب ليس منتشراً فقط وعلى نطاق واسع، بل إنه حقيقة الجواب الممكن، إلا أنه يستحق البحث.

لا يوجد أي شخص ما عدا البيوريتاني باستطاعته بصورة واعية مدركة الاعتراض بأنه ليس من الأخلاق بالنسبة للمسيحي أن يشاهد أو حتى يمثل في رواية مثل تلك التي كتبها كبار الدراماتيكيين اليونان والرومان، حتى ولو أنها كانت قد كتبت بإلهام ديني صادر عن وثنية مرفوضة كلية من الكنيسة. قد يكون من الحماقة البالغة بالنسبة لرجال الإكليروس والكهان أن يصدروا بصورة دينية وقورة حظراً على العرض الذي يقوم به المهرج المعروف «بالبونس أند جودي» لأن شخصاً ما استطاع إثبات أن له أصوله في القصص المصرية أو الفرعونية. وإذا أحس النظارة والمشاهدون بسمو وتحسن أخلاقي عن طريق مشاهدة مثل هذه المشاهد، فإن ذلك سيكون في منتهى الخير والصلاح حيث إن تلك هي وظيفة الفن وغايته.

إلا أن التشابه والتماثل يفشل في هذه النقطة. فلو أن لدى المحافل صالات عرض عامة لا يتحكم بمداخلها حراس مشهرو السيوف، ولو أن الطقوس الخاصة بموت وبعث حيرام أبيف أعيد بناؤها وتأليفها وقدمت علناً على مسرح لندن، فإنه سوف لا يكون باستطاعة أحد أن يعترض بصورة منطقية على ذلك المسيحي الذي يحضرها أو يحسده على ذرة من الفائدة الأخلاقية التي حصل عليها من مشاهدتها وحضورها. إلا أن المشاركة الماسونية في هذه القطوس هي بكل تأكيد مسألة مختلفة تماماً، حتى ولو لم تحمل محمل الجد بصورة حرفية وبكل ما تعنيه الكلمة من معنى. لأن الماسوني لا يدمج نفسه بالرموز والأسرار الدينية، بالمعنى الذي يدمج فيه الممثل القدير نفسه بالدور الذي يؤديه. بل بقسم مقدس مهيب كما أنه باسم الله يشارك في وثنية الرواية، ويدمج نفسه روحياً بها.

ثانياً، إن معاملة الطقوس أو حتى أجزاء من الطقوس على أنها أشياء لا تحمل محمل الجد يعني بصورة خطيرة وجدية العبث بالأشياء الإلهية المقدسة التي تبدو غير دينية وليست من أعمال الورع والتقوى، حيث إن كل شيء يتم عمله باسم الله، والكتاب المقدس موجود ومتاح للجميع. إن الصلاة تؤدى في

كل انتساب للعضوية «مدعومة ومصحوبة بفننا الماسوني» ولكن المرشح للعضوية قد يكون «من الأفضل تمكينه من الكشف عن جمالات الورع والصلاح الصحيح الحقيقي» فإذا كان للفن الماسوني أن لا يحمل على محمل الجد فقد يستتبع ذلك أن الصلاح الحقيقي والمفروض أن يرفع من شأنه ينبغي أن لا يؤخذ على محمل الجد بصورة جدية بصورة مفرطة فإذا كان للمسيحي أن يشارك إطلاقاً في مثل هذه الطقوس، فإن عليه أن يفعل ذلك بمنتهى الجدية.

ثالثاً، كما يعرف كل رجل من رجال الدين، بكل أسى، يوجد هناك الكثيرون جداً من المسيحيين الاسميين ممن لا يحملون طقوس الكنيسة وشعائرها محمل الجد، فهم يذهبون إلى الكنيسة مرتين أو ثلاث مرات في السنة في أعياد رأس السنة الميلادية أو أعياد الحصاد لأنهم يستمتعون بها ويشعرون فيها بالسمو الأخلاقي، ومع ذلك لديهم القليل جداً من الاستفادة من العقيدة والأسرار الدينية المقدسة، كما أنهم يقيّمون الكنيسة إلى الحد الذي تساعد فيه الكنيسة الناس على أن يعيشو حياة لائقة محتشمة، فالتوبة والنعمة والإلهية وتضحية المسيح الفادية المكفرة للخطيئة لا تلعب أي دور في حياتهم، فقد تم تعميدهم في التجسد الرمزي المقدس عن طريق التعميد ـ إلا أنهم لم يأخذوا ذلك بصورة جدية تماماً.

لا يوجد هناك أحد يعتبر مثل هؤلاء الأشخاص مسيحيين صالحين جيدين أو رجال كنيسة، فمفهومهم عن الإيمان، ورفضهم ما هو منفر لهم أو الذي يفهمونه بصورة غير صحيحة فقط، غير كامل أيضاً، لذلك لا يوجد هناك أحد يعتبرهم مدافعين مثاليين أو حتى محترمين، إذن، بأي حق يقوم الماسونيون الذين يرفضون أخذ تعاليم طقوسهم على محمل الجد أكثر من كونها عبارة عن سمو أخلاقي، باعتبار أنفسهم ماسونيين صالحين حقيقين، أو مدافعين موثوقين عن المحفل؟

لقد كان النبي عزقيال في غاية الانزعاج عندما رأى في الحلم نسوة يبكين في هيكل تموز، قد يكون متعكر المزاج بصورة مفردة، وربما كان ينظر إلى

الأمر كله على أنه غير منطقي ولا ينسجم مع العقل، إلا أنه نظر إليه على أنه شيء مقيت على الأقل ويدعو إلى السخط. وربما يشار على سبيل المثال إلى أن الكاتب الماسوني جي. اس. ام. وورد، قال وهو في إحدى حالاته النفسية الخيالية أن حيرام أبيف كان نسخة دنيوية أرضية عن تموز، وعلى هذا فإن من الممكن تماماً أن تكون تلك النسوة المضللات قادرات على إسالة دموعهن بصورة رمزية صحيحة في قنوات متوافقة مع الرموز الماسونية ومتواكبة معها، ومع ذلك فإن هناك مجالاً للشك فيما إذا كان عزقيال قد تمت تهدئته أو أن غضب يهوه قد تم تخفيفه لو أنهن توسلن قائلات بأنهن لم يكن يعنين أخذ عملهم على محمل الجد. وإن المسألة مجرد تمثيلية وكل واحدة منهن كانت تعني ذلك تماماً.

(١٠)

إدانات رجال الدين للماسونية

قال الملك للمرة العشرين تقريباً: «دعوا المحلفين يفكروا ملياً في حكمهم والقرار الذي اتخذوه».

لويس كارول ـ أليس في أرض العجائب

من المعروف تماماً أن الماسونية قد تمت إدانتها من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وأن أي كاثوليكي رومي، في طقوس وشعائر الإدخال في العضوية يصبح بطبيعة الحال محروماً كنسياً، حيث إن الكنيسة، عكس الإشاعة الدارجة، لا تبيح للمهتدي إلى الماسونية الاستمرار في الماسونية ولا تحل له ذلك.

وقد قوبلت هذه الإدانة بالاستياء من قبل ماسونيين المحفل العظيم في العالم الناطق بالإنجليزية. فقد أحس على نطاق واسع أنه لم يكن حكماً عادلاً، كما انتشر الاعتقاد بأن الإدانات التي أصدرها البابا، إلى الحد الذي يشمل «كافة» الأنظمة «الماسونية هذه الإدانات، كانت مبنية على سوء فهم كامل لما تعنيه ماسونية المحفل العظيم، وعلى خلط يدعو للأسى بين المحافل العظمى وبين الموجهين العظام. فقد قال أحد المعتذرين بأن الأخوية الماسونية، في الآونة الأخيرة: إن كنيسة روما لا تعرف إلا القليل جداً عن الماسونية المنتظمة».

إلا أن روما حقيقة وبصورة فعلية على تمام المعرفة بالماسونية المنتظمة. إذ يوجد لديها كميات هائلة من المعلومات التي تعتمد عليها. بالإضافة إلى الحقيقة القائلة بأنه سواء في هذه البلاد أو في أمريكا، فإن مهتدي الكنيسة يضمون العديد من الماسونيين وأحياناً يوجد بينهم أشخاص من ذوي المكانة العالية والمراكز الاجتماعية المرموقة (مثل الأستاذ الأعظم، ماركيز ريبون في القرن الماضي). وفي كثير من الحالات كانوا يحافظون على ولائهم لأخوتهم السابقة في الأخوية الماسونية، كما قاموا بالشهادة على صحتها وصلاحياتها بعبارات تؤكد على عدم ضررها السياسي، وعلى ولائها الدستوري وعى إيمان راسخ قوي بالباني العظيم، والتي هي جميعها معالم ماسونية وأسس جوهرية تدل على أن روما تعرف كل ذلك، وتقبله وتأخذه بعين الاعتبار.

ينبغي أن يكون معروفاً بأن بعض العبارات في انتقاداتها الرسمية ليست فقط غير قابلة للتطبيق على الماسونية المنتظمة، بل إنها تصيب كذلك الماسوني البروتستنطي المخلص الذي يخشى الله تعتبره مذنباً بالغ الذنب ومرتكباً معصية لا تغتفر، فإنه عندما يفكر في الأركان التي يقوم عليها المجتمع والتجارة وربما القساوسة الذي يتجمعون كل ثلاثة أشهر أو على فترات منتظمة في محفله، وقد تألقت على صدورهم جوهرة البر والإحسان، فإنه عندئذ يعتبر نفسه بأن له الحق في الشعور بأن البابا كليمينت الثاني عشر كان بعيداً جداً عن الهدف عندما قال بأن مثل هذه الاجتماعات «قد أصبحت بالنسبة للمؤمن مجرد أشياء مشتبه بها وموضعاً للشك، بحيث إن كل شخص صالح يعتبر الآن الانتماء إليهم إشارة واضحة ودليل على أنه شر وانحراف عن الجادة».

أما الآن وبحسب هذه المنشورات الباباوية العامة الصادرة عام ١٧٣٨ فإن من الواضح أن كليمينت الثاني عشر كان في ذهنه عندما كتب هذا (بين عوامل أخرى) السمعة السيئة التي لحقت بالماسونية الفرنسية من تأثير الدوق دي أورليانز السيء السمعة، كما أن الإدانات التي جاءت في الأونة الأخيرة أخذت في حسابها مثل تلك الحركات مثل النزعة المستنيرة المهينة لويشوبت والنزعة التحريضية

الصريحة «الترافينديتا في إيطاليا، التي أصبح بواسطتها «الكرسي البابوي» أقرب إلى أن يكون محاطاً ومهدداً من كافة النواحي، وعندئذ قد يكون مقبولاً بصورة علنية وعلى نطاق واسع من قبل معظم المؤيدين لسلطة البابا المطلقة بأن كل عبارة في كل إدانة يمكن عقلياً أن تكون متوقعة للانطباق على كل جمعية ماسونية سرية أو شبه سرية. فالاتهامات باللافرقية الدينية، على سبيل المثال، غير واردة إطلاقاً بالنسبة للمنظمة الإلحادية المعادية بصورة قتالية شديدة، باعتبارها اتهامات واعية متعمدة «لانحراف عقول غير الحذرين واقتناص الأشخاص الأبرياء من أماكن اختفائهم وتحصينهم، كما تبدو لمحفل مكون من رجال إنجليكانيين محترفين محترمين. ولكن قبول ذلك بعيد كل البعد عن قبول أن الإدانات الباباوية ينبغي أن تنطبق كلية على كافة الماسونيين الأنجلو ـ سكسون، أو إنها بعيدة كل البعد عن أن تكون غير شرعية أو غير قانونية وينبغي تحريمها.

إن دراسة السلسلة الكاملة للإدانات التي أصدرتها كنيسة روما الكاثوليكية ضد الماسونية من المنشورات البابابوية العامة الصادرة في ١٧٣٨ إلى الفقرات الواردة مجموع مخطوطات القوانين ستبين بأن الأسباب الرئيسية التي دعت إلى إدانة الماسونية العالمية، بصرف النظر عن الفتن السياسية التحريضية والإلحاد المكشوف، هي حقيقة أن الماسونية تعلم الديانة «الطبيعية» المحضة، ورموز الطقوس الماسونية التي غالباً ما تكون تجديفاً، بالإضافة إلى أنواع القسم والواجبات (بعقوباتها البالغة الحد في القسوة) والتي لا تقيم وزناً للظروف التي يتطلبها القانون الأخلاقي لقسم عادل محترم مقدس، وكذلك النزعة ا للافرقية التي تتسم بها الماسونية في مسائل الدين والتي (مهما كان شرحها وتأويلها) بحدها في التطبيق العملي تعلم أن كافة الآلهة متساوون، فهنا نجد أساساً قوياً للإدانة الكاثوليكية ـ في الحقيقة أن أيًّا من هذه النقاط قد تكون مبرراً لذلك. كذلك فإن الماسونية الأنجلو ـ سكسونية مذنبة في هذه المسائل أيضاً مثل محافل الموجهين العظام، والتي على الأقل لا تقوم بتأدية أنواع القسم الحقيرة المزدراة على الكتاب المقدس أو باسم الله.

من المعتقد على نطاق واسع من قبل الماسونيين، أن اعتراضات الكاثوليك الروم على الماسونية مرتبطة بطريقة ما بالطريقة الاعترافية ـ أي إنه ينبغي أن لا يكون هناك أية أسرار يمكن أن تكون محجوبة عن المعترف أو محظورة عليه الاطلاع عليها. إلا أن الأمر ليس كذلك. حيث إن الكاثوليكي له الحق في الاطلاع على أسراره، بشرط أن لا تكون خاطئة أو مؤدية إلى معصية، تماماً مثل أي إنسان آخر.

إذن، فإن الادعاء القائل بأن روما قد أدانت الماسونية الإنجليزية على أسس زائفة وخاطئة، هو ادعاء مبني إما على الجهل أو على تفكير مشوش التبست عليه الأمور.

وغالباً ما كان الإيحاء يقول بأن عداوة الكرسي البابوي هي التي دفعت الموجهين الماسونيين العظام إلى الإلحاد، ودفعت كنيسة إنجلترا للتفوه بعبارات ضد المرامي اللاهوتية للماسونية، لذلك كان لا بد للمحفل الأعظم إلا أن يصبح عدواً لدوداً لله وللمجتمع ومع هذا فإن النقطة الأولى لا يمكن الدفاع عنها تاريخياً «فالماسونية القارية منذ البداية تقريباً كانت مجلى للفكر الحر، والنزعة الليبرالية السياسية والدينية، ومعاداة الإكليركية، ومظهراً من مظاهر الوثنية التي تفسد المجتمع المعاصر، حتى قبل أن يكون «الباني العظيم» قد تم رفضه وشجبه في نهاية القرن التاسع عشر لذلك، فإن النقطة الثانية تمثل «الشمولية الإنجليكانية» في سخفها وفتورها. كما إنها مساوية للإيحاء القائل بأن إيرانوس كان يضيع وقته في شجب الديانات الرمزية الباطنية الغنطوسية (القائلة بأن الخلاص عن طريق المعرفة الروحية) وبذلك كان يخاطر بإثارة عداوتهم بدلاً من حث المسيحيين على الالتحاق بهم من أجل منعهم من أن يصبحوا أكثر غنطوسية وأكثر غموضاً وخفاء وباطنية كذلك سيكون أسوأ بالنسبة للكنيسة أن تصبح مفتوحة وعرضة للهجوم من الخارج بدلاً من تدميرها بصورة غادرة من الداخل.

إن الموقف الباباوي المشهود تجاه الماسونية يمكن الحصول عليه من

الوثائق التالية. والتي هي في المتناول ولا يحتاج معها إلى أية ملخصات أخرى في هذا المقام.

- المنشورات الباباوية العامة، كليمينت الثاني عشر ١٧٣٨.
- الإكليروسية (رجال الدين) بيوت السابع ١٨٢١.
- وثقية إيتس مولتا، بيوس التاسع ١٨٧٣.
- الجنس البشري، ليو الثالث عشر ١٨٨٤.

كذلك فإن الكنيسة الأرثوذوكسية اليونانية قد تجهمت في وجه الماسونية فالبرغم من أنها محاطة بالموجهين العظام بدلاً من المحافل العظيمة، فإن عبارات الإدانة كانت موجهة بصورة رئيسية ضد الأخيرة أي المحافل العظيمة وخاصة، عندما تبدو في شكلها الأمريكي. ومما لا شك فيه أن كثيراً منها غير قابل للتطبيق إطلاقاً على أي نظام ماسوني ترك الباني العظيم وتخلى عنه. وبما أن هذه الإدانة لم تكن قد ترجمت أو نشرت في بريطانيا العظمى من قبل، بالرغم من أهميتها، كما أنه من الواضح أن لها تأثيراً حيوياً على أي تقارب أنجلو ـ أورثوذكس، فقد نشرتها كاملة. وسيلاحظ من الرجوع إلى الإدانة السابقة للماسونية على أنها «زائفة ومعادية للنظام المسيحي» التي أصدرتها الهيئة التبشيرية الأورثوذوكسية المتبادلة والتي اجتمعت على جبل أذوس بأنها تقول ليس اليونان وحدهم، بل كافة الكنائس الأورثوذوكسية ذات الرئيس الواحد ملتزمة بعدم إضفاء الشرعية على الأخوية الماسونية واعتبارها خارجة على الشرع. فهي تقول:

(إن أساقفة الكنيسة اليونانية في جلستهم التي عقدوها في ١٢/ ١٠/ ١٩٣٣، قاموا بمزيد من الاهتمام بدراسة وتفحص المنظمة الدولية السرية الماسونية، فقد استمعوا بكل انتباه واهتمام إلى التقرير الاستهلالي لهيئة الأساقفة الأربعة التي عينها المجمع المقدس في جلسته الأخيرة، وكذلك إلى رأي الكلية اللاهوتية التابعة لجامعة أثينا، وخاصة رأي البروفسور باناج براتيوتيس المرفق مع التقرير كما إنهم أخذوا بعين الاعتبار المنشورات وكل ما نشر عن الموضوع في

اليونان وفي الخارج. وبعد المناقشة توصلوا إلى النتائج التالية التي قبلها وأقرها كافة الأساقفة بالإجماع.

«إن الماسونية ليست مجرد اتحاد محب للبشر أو مدرسة فلسفية، بل إنها تشكل نظاماً متعلقاً بتعليم أسرار الدين الذي يذكرنا بالعبادات والديانات الرمزية الباطنية الوثنية الغابرة ـ التي انحدرت الماسونية منها كما إنها استمرار وإعادة إحياء لها. وهذا الأمر ليس معروفاً ومقبولاً من أساتذة المحفل البارزين فقط، بل إنهم يعلنوا بكل فخر حيث يؤكدون ذلك حرفياً حيث يقولون: «إن الماسونية هي الرموز والأسرار الغابرة الوحيدة الباقية على قيد الحياة، كما يمكن أن يطلق عليها حارسة لها، إن الماسونية سلالة مباشرة من الأسرار المصرية (فالورشة المتواضعة للمحفل الماسوني ليست سوى الأماكن المظلمة والكهوف المبنية من خشب الأرز في الهند وفي الأعماق المجهولة للأهرام وسراديب الهياكل العظيمة لإيزيس»، ولذلك فإن الأسرار والرموز اليونانية للماسونية، وقد مرت على طول طرق المعرفة المنيرة المشرقة تحت الأقبية والقناطر السرية الخفية لبروميثيوس وديونيسيوس وأورفيوس، تشكل بذلك القوانين الأزلية الأبدية للكون».

إن مثل هذه الرابطة بين الماسونية وأسرار ورموز الوثنية الغابرة تظهر بكل جلاء ووضوح في كافة الأعمال التي تتم ممارستها وأداؤها في مراسم وطقوس الإدخال في العضوية، فكما هي الحال في الطقوس والشعائر الخاصة بالأسرار الوثنية الغابرة، فإن دراما معاناة وموت الإله الغامض السري الخفي كان يتكرر، وفي الإعادة التي تحاكي هذه الدراما. فإن الداخل في العضوية يموت مع نموذج الديانة الرمزية السرية، والذي يكون دائماً عبارة عن شخص أسطوري يرمز إلى شمس الطبيعة التي تموت في الشتاء وتولد من جديد في الربيع، كذلك الأمر في مراسم الانتساب إلى العضوية في الدرجة الثالثة للمحفل الماسوني الخاص بنموذج حيرام الماسوني ونوع من تكرار موته، والذي يتم فيه معاناة المرشح للعضوية معه، كما أنه يضرب بنفس الوسائل وفي نفس الأجزاء من جسمه مثلما كان الأمر مع حيرام، وبموجب اعتراف أحد الأساتذة البارزين في الماسونية فإن

حيرام «مثل أوزيريس، ومثل مثيرا ومثل باكوسن، ما هو إلا تشخيص وتجسيد للشمس».

«وهكذا، وكما هو مسلم به، فإن الماسونية ما هي إلا ديانة رموز وأسرار، مختلفة تماماً، ومستقلة تماماً، وغريبة كل الغرابة عن الديانة المسيحية، ويبدو ذلك بصورة لا شك فيها ولا ريب في حقيقة أن لها هياكلها الخاصة بها مع مذابحها، والتي تتميز بالأساتذة البارزين مثل «الورشات التي لا يمكن أن يكون لها تاريخ أقل وقداسة أدنى من تاريخ وقداسة الكنيسة». ومثل هياكل الفضيلة والحكمة حيث «الكيان الأعظم» تتم عبادته وتقديم الصلوات له كما يتم تعليم الحقيقة، أن لديها مراسمها الدينية الخاصة بها. مثل مراسم وطقوس التبني والعماد الماسوني، ومراسم وطقوس ورموز الاعتراف بالزواج أو الزواج الماسوني، وصلاة الذكرى الماسونية، وتكريس الهيكل الماسوني الخ. . إن لها إجراءاتها الخاصة بالانتساب للعضوية، وطقوسها الرمزية الخاصة بها، بالإضافة إلى تنظيمها ذي المراتب المتسلسلة وانضباطها وتأديبها وأنواع قصاصها. وكما يمكن استنتاجه من الأفواه الماسونية الفاغرة وولائهما وأعيادها الدينية.

«لقد قامت كنيستنا على مدى أكثر من مائة سنة بإصدار شهادات ضد الأخطاء المبدئية العقائدية في عديد من الكنائس والعبادات ولكنها كانت قد أصدرت شهادات ضد الآراء الدينية الزائفة والمبادىء التي يعبر عنها في الطقوس والمطبوعات الأخرى لكثير من الجمعيات السرية المرتبطة بقسم، وقد تم فعل ذلك لأن المعتقد أن عبادة إله غير الله الثالوث الأقدس هي عبادة وثنية. وذلك لأنها في صحيح وعي توجيهات مخلصنا وفي بؤرة انتباهه «ينبغي على كافة الأفراد تكريم «الابن» كما يكرمون «الأب» تماماً، فالذي يكرم الابن لا يكرم الأب، الذي أرسله». وقد تم فعل ذلك لأن مبعثه الإيمان الراسخ والإخلاص الذي لا يتزعزع بكلمة الله ولحقائق الخلاص ولروح القدس. وعلى هذا فإن آخر بيان أصدرته كنيستنا المتعلق بمنظمات القسم السري المرجأ تظهر على النحو

التالي في «محاضر جلسات، الاجتماع الذي يعقد مرة كل ثلاث سنوات والذين تم عقده في ميلووكي في يونيو عام ١٩٥٠. والذي يقول:

لقد تقرر أن نحث كافة رعاة الكنيسة والأبرشيات والطوائف على ممارسة منتهى اليقظة والانتباه إزاء هذه المسألة:

إن هؤلاء الرعاة والأبرشيات في إهمالهم واجبهم من هذه الناحية سيكونون مستحقين للوم بموجب ما جاء في إنجيل متى (١٨) من قبل إخوانهم المسيحيين، وإخوانهم رعاة الكنيسة والمسؤولين الإقليميين وإنه.

في حالة فشل كافة مثل هذه الوسائل الإنجلية في التعامل مع الرعاة المخالفين أو الأبرشيات الفاشلة في أداء مهمتها هذه، فإن المسألة برمتها سترفع إلى «اللجنة المركزية» للمجمع الكنسي وأخيراً للمجمع الكنسي نفسه، إذا كان ذلك ضرورياً، من أجل عمل الإجراءات اللازمة المناسبة».

كذلك فإن مؤتمر اللوثريين الأمريكيين ملزمين بما هو معروف بـ«أطروحات مينا بوليس» والتي تعبر الفقرة التالية من أبرز ما فيها:

إن هذه المجامع الكنيسية متفقة على أن مثل هذه المنظمات أو الجمعيات، السرية أو العلنية، سواء كانت دينية بصورة جهرية أو تمارس أشكال الدين بدون الاعتراف، كناحية مبدئية بالله الثالوث الأقدس، أو يسوع المسيح على أنه ابن الله، تحول إلى جسد، وإن مخلصنا من الخطيئة، أو علم، بدلاً من الإنجيل، الخلاص عن طريق الأعمال البشرية والأخلاق، معادية للمسيحية وهدامة لا فضل اهتمامات الكنيسة ومصالحها، ولروح الفرد، وإنه تبعاً لذلك، فإن كنيسة المسيح وطوائفها وأبرشياتها لا يمكن أن يكون لديها زمالة مع هذه المنظمات والجمعيات ولا أن تكون على وفاق معها.

«إنها متفقة على أنه يجب أن لا يتسامح أي مجمع كنسي لورثري يمنع رعاة الكنيسة الذين يسمحون لأنفسهم بالانتماء إلى أية هيئة معادية للمسيحية. كما أن هذه المجامع تحت رعاتها وأبرشياتها على الشهادة ضد خطيئة الانتماء إلى المحفلية الماسونية».

وقد قامت الكنيسة الإصلاحية الهولندية في جنوب إفريقيا (مجمع كاب الكنسي) بتشكيل هيئة للبحث والتمحيص في حقيقة الماسونية، وقد أعدت هذه الهيئة تقريراً اجتماعياً شاملاً ضد الأخوية الماسونية في نوفمبر من عام ١٩٤٠. ومن المعروف أن هذا التقرير غير دقيق نوعاً ما عندما يتناول تاريخ الماسونية وتنظيماتها. فهو يقتبس من الطقوس ما يبدو بكل تأكيد خاطئاً بصورة جلية لا لبس فيها ومع هذا فإنه لم يقم أي من التحديدات التي جاءت في التقرير بنقص أو إبطال أو نسخ الإدانة على أسس دينية الخلاص عن طريق الأعمال، الديانة الطبيعية، أنواع القسم غير الصحيحة وغير المناسبة الفكرة الزائفة عن الله والنزعة التوفيقية الكامنة في أعماق الأخوية الماسونية، وبناء على ما جاء في التقرير فإن هذه الهيئة أوصت بأن كافة الأعضاء الماسونيين من الكنيسة الإصلاحية الهولندية ينبغي أن يحثوا على ترك محافلهم كما ينبغي أن لا يتاح لأي ماسوني في المستقبل تولي زمام أي منصب في الكنيسة.

قد يحس بأن هذه الهيئات البروتستنتية تمثل أقليات ولذلك فإنها غير مهمة. ولكن إذا أخذناهم مع الطوائف الكاثوليكية التابعين لروما والواسعي الانتشار بالإضافة إلى الأرثوذوكس الشرقيين، فسيكتشف أن أغلبية المسيحيين في كافة أنحاء العالم قد أدانوا الماسونية على أنها لا تتلاءم مع مطالب سيدنا ومخلصنا يسوع، إلا أن الناحية العددية ليست المحك النهائي، بل المهم هو، أسباب مثل هذه الإدانة والانتقادات سليمة؟

وهنا تبدو حقيقة مذهلة، قد تجعل من الماسوني المسيحي أكثر من مجرد شخص قليل التفكير والانتباه. إلا أنه لا يوجد أية كنيسة قامت بصورة جدية ببحث وتمحيص التعاليم والمرامي الدينية للماسونية، وفشلت حتى الآن في إدانتها إطلاقاً.

فهل كنيسة إنجلترا بصورة مفرطة في إبداء رأيها حول الموضوع؟